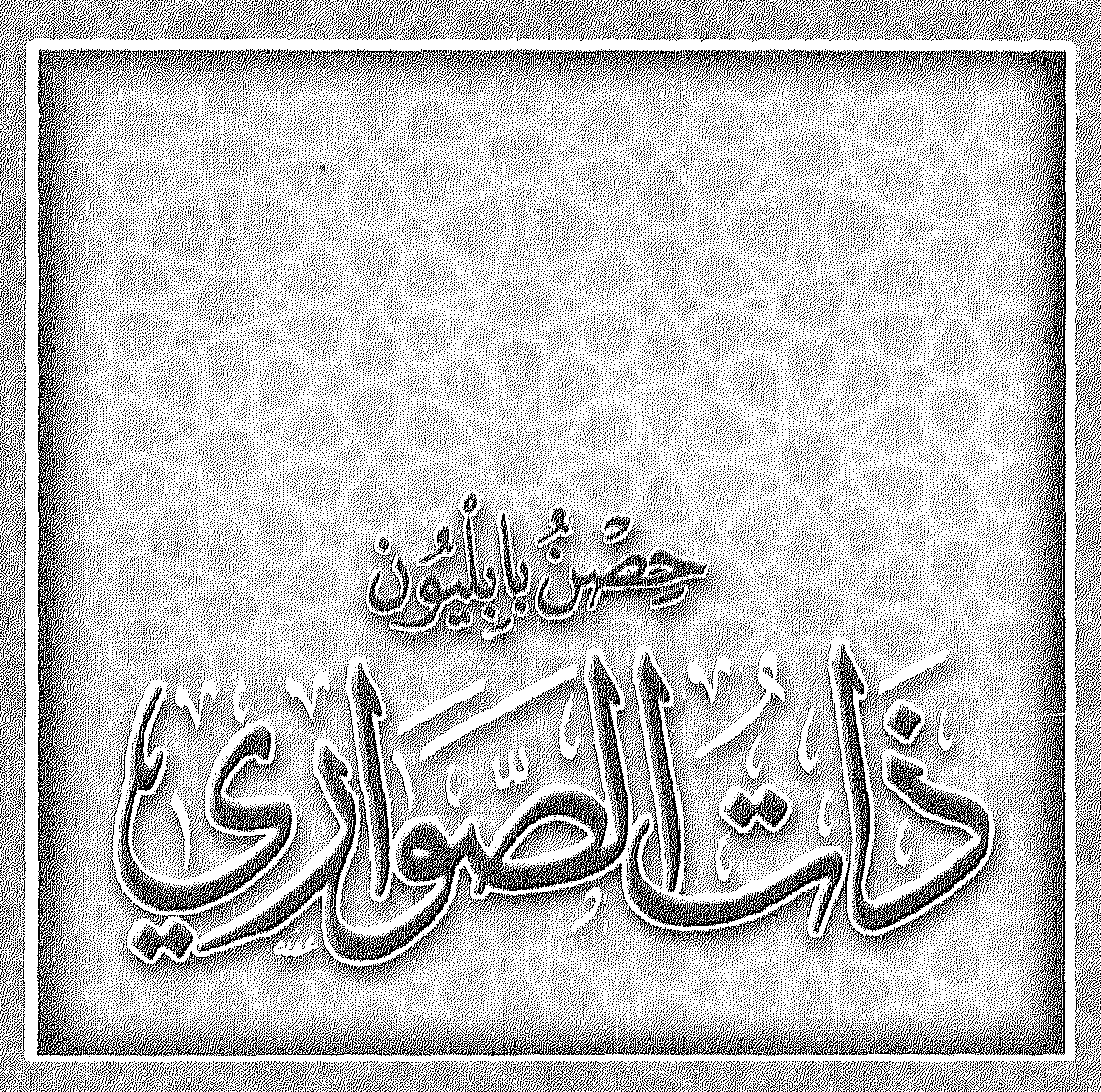
المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام



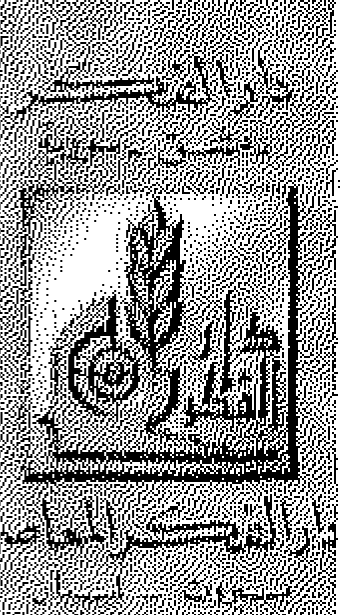
حصن بابليون

ذات الصواري

بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح

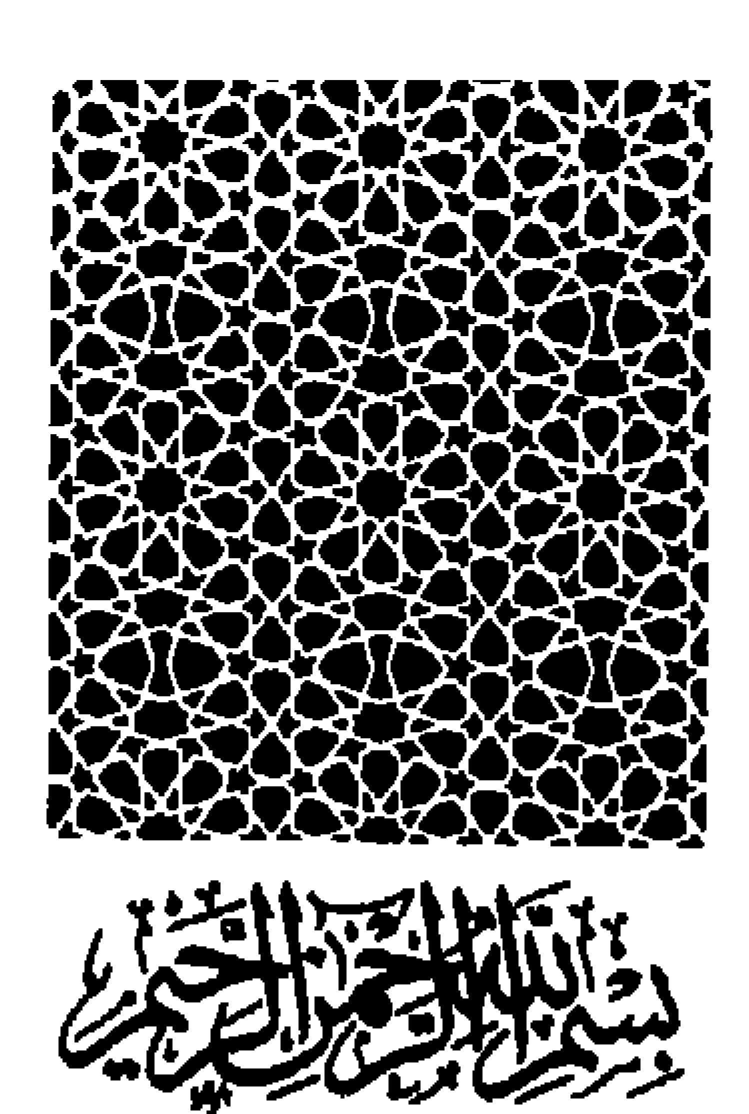


الدكتور شوقي أبو خليل



دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

حصن بابليون

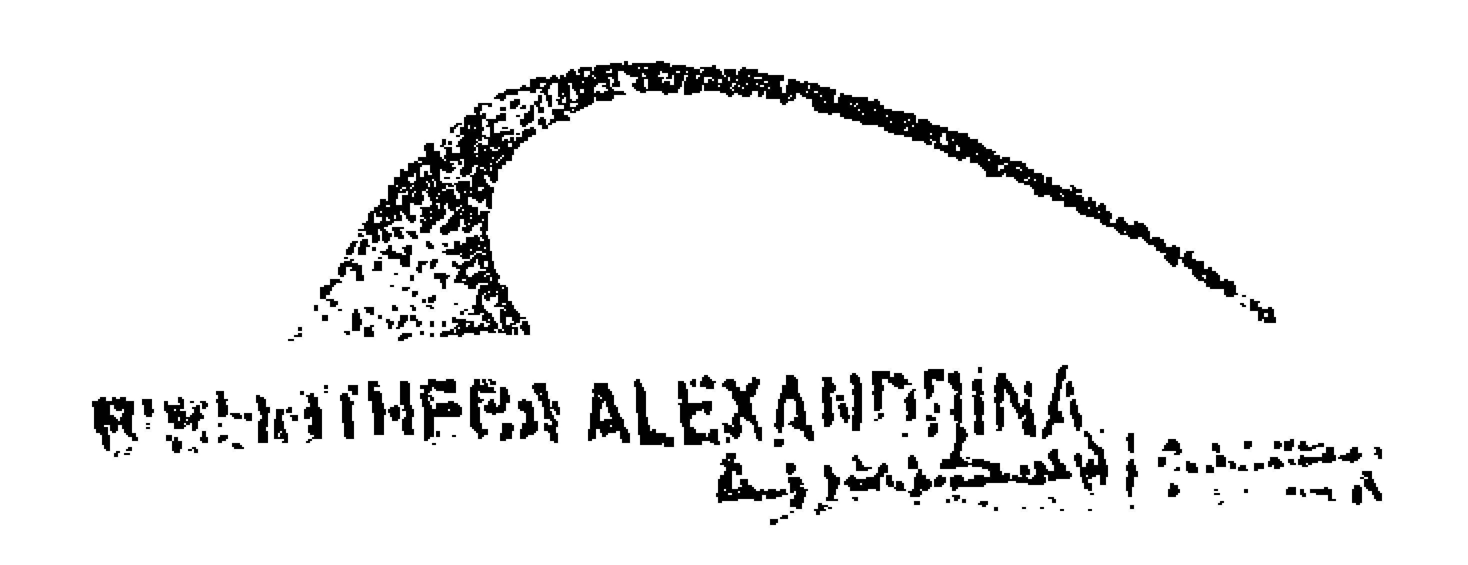
ذات الصواري

بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح

حصن بابليون ؛ ذات الصواري : بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح/
شـوقي أبو خليل . - دمـشق : دار الفكر، ١٩٩٨ . - ٧٧ص؛ ٢٠سم . -
(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الثالثة عام ١٩٨٠ .
١- ٩٥٦,٠٣ خ ل ي ح ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الثاني
٤- أبو خليل ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

١٩٩٨/٢/٣٣٥

الدكتور شوقي أبو خليل



حصن بابليون

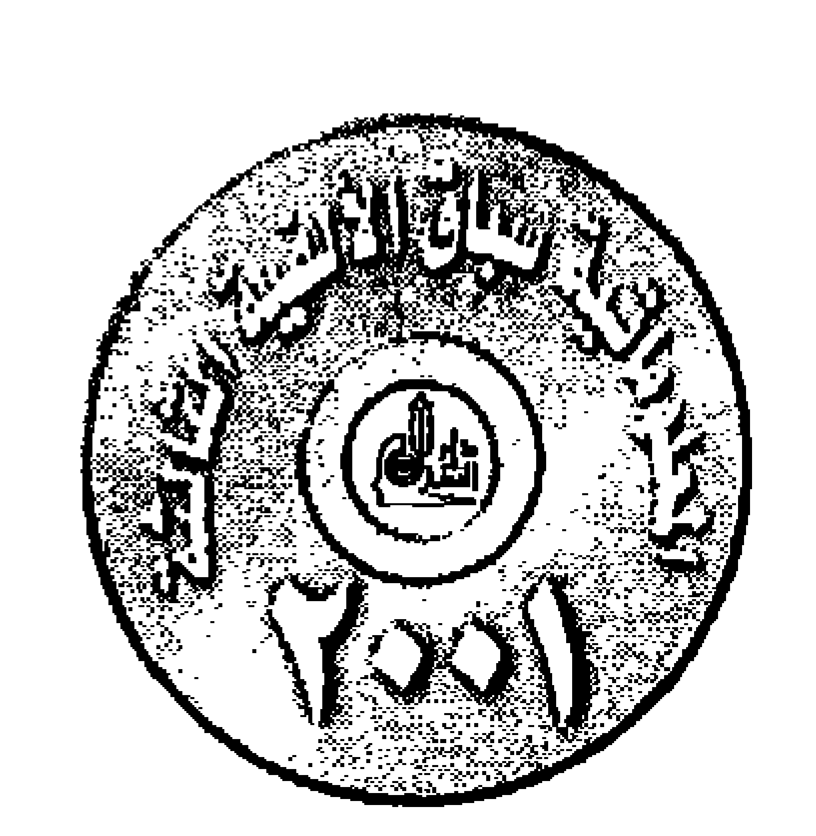
ذات الصواري

بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٤٩٢,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-500-6
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-503-0
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: ذات الصواري
التأليف: د شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر – دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية– دمشق
عدد الصفحات: ٨٠ صفحة
قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة



دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق–سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

إعادة
١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م
ط٤: ١٩٩٣م

تصــــدير

* « جاهلي كسبه الاسلام ، فكسبه العالم كله الى آخر الزمان .. » .

(العقاد)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعــد ..

هذا هو الجزء الرابع من سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام » ، بيد القارىء ، بعد أن صدر على التوالي : القادسية ، اليرموك ، نهاوند « فتح الفتوح » .

هذا هو الجزء الرابع ، وفيه فتح المسلمين لحصن بابليون ، ثم المعركة البحرية الهامــة في تاريخ أمتنا ، انها معركــة « ذات الصواري » .. حيث انتقل العرب الفاتحون ، حديثو العهــد في البحر وحروبه ، الى معارك بحرية جعلت ـ فيما بعد ـ البحــر المتوسط بحيرة عربية اسلامية .

ومما يلفت النظر .. ان الاعداد والتخطيط لمعركة القادسية ، كان من قبل عمر رضي الله عنه ، وكان الفوز في اليرموك في أيامه أيضا . وكان اختيار القائد ، والتهيئة لنهاوند ، من قبل عمر ..

وفتح حصن بابليون ــ الذي يعتبر المنفذ الاول الى مصر كلها ، حتى سمي : باب مصر ــ كان في أيامه أيضا.رضي الله عنه ..

عمر : الشخصية الاسلامية الفريدة ، الفريدة في عظمتها وباقتناعها بالاسلام ومبادئه ، الفريدة بفكرها واجتهادها ، الفريدة بعدلها وخلقها ، الفريدة بفراستها واختيارها لقادة المعارك بحدس سليم لا يخطىء ، الفريدة في تخطيطها للحروب وبمتابعتها لساحة المعركة .. هذه الشخصية جمعت العظمة من أطرافها .

هذه الشخصية من معدن العظمة والعبقرية .. وانني لاجد في نفسي مزيداً من حب مطالعة سيرته ، ونهما فكريا لمعرفة المزيد عنه .. وان وددت أن أطنب في الثناء على « أبي حفص » بعــد ذلك ، فلا أجد كلمات تفيه حقه ، فكل كلمة تخطر لي ، هي أدنى بكثير من مقامه في قلبي ، وكل فكرة تتردد في جنبات الروح ، هي أقل من مقامه في نفسي ، هي تافهة مقابل عظمة هذا الرجل .. وأنقذني من حيرتي هذه .. كلمة قالها من أوتي « جوامع الكلم » سيدنا محمد ﷺ ، بحق عمر ، قال ﷺ : « لم أر عبقريا يفري فريه .. » أي أن عمر عبقري تفرد في عمله ، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه ..

وعمر وعبقريته المبدعة ، ماكانت لولا الدعوة الاسلامية ، التي بعثت وفتقت كوامن عظمته وينابيع اجتهاداته .. فكان له موضع في التاريخ العالمي الذي يزدحم بالاسماء الكبيرة ..

لقد دخل عمر التاريخ من بابه الواسع العريض ، بعد دخول

مدرسة رسول الله ، فاقترن اسمه بالاسلام ، وبانهيار دولةالفرس، وتراجع دولة الروم عن بلاد الشام ومصر .

هذا الرجل الذي وضع دستور الحرب للمحاربين المسلمين ، وعهد بتنفيذها الى ذوي خبرة وأمانة ، تفرس فيهم الخير ، دون أن يكبلهم بآرائه وخططه .

ومن روائع صور حياته ، اعلانه مبدأ « سيادة الشعب » و « حرية الفرد » و « تساوي أفراد الرعية » ... وذلك منذ مئات السنين !

لقد هلل العالم وضج اعجابا ، عندما دفع الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) بكتابه « العقد الاجتماعي » ، الذي كان له أكبر الاثر في الثورة الفرنسية ، حتى سمي « انجيل الثورة الفرنسية » ، هلل العالم كله لهذا الفرنسي ، الذي قال في كتابه : « يولد الانسان حرا ، الا أنه يكبل بالاغلال في كل مكان » .

أنسي العالم ؟ أم نحن قصرنا في اظهار الحقيقة له وفي تذكيره ان في تراث امتنا العريق ما هو أبهج وأقوى أثرا في النفس الانسانية من هذه الكلمات ؟! بل هناك ماهو أعنف في أخذ الحقوق للضعفاء على مختلف عقائدهم ، وذلك في كلمات عمر عندما قال لعمرو ، فاتح مصر ، كلمات تشع نورا ، وتنطق عدلا ومساواة : **« أيا عمرو .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!!؟»** .
ثم التفت عمر الى القبطي ، الذي ضرب ابنُ عمرو ابنَهُ قائلا : **« انصرف راشدا فان رابك ريب فاكتب الي »** .

هذه هي حقوق الانسان ــ يا ناس ــ أعلنهـا عمر ، عمر المسلم العربي ، قبل أربعة عشر قرنا •• أنسينا عمر ؟ وهو منا ونحن منه !! ليس هذا فحسب ، بل بهرنا بقول جان جاك روسو ، فأين ذاتيتنا العربية ؟!؟

أعلن في الامم المتحدة عن حقوق الانسان في القرن العشرين ولكن أين هي حقوق الانسان عمليا ؟ صدقا وفعلا ؟ أين حقوق الانسان في فلسطين ؟ أين حقوق الانسان في روديسيا وجنوب افريقية ؟ أين هي حقوق الانسان الزنجي الاسود في أمريكا حيث يشمخ مبنى الامم المتحدة ؟

حقوق الانسان أكلها القوي وهو يكرر نطق : « حقـوق الانسان مصانة ، اننا نحافظ على حقوق الانسان •• » ولكن أي انسان هذا ؟ أهو الانسان الابيض فقط !!

أما في دولة عمر ، عمر العربي المسلم ، فقد أعلنت حقوق الانسان وطبعت في القلوب ، وظهـرت فعليـا بدون تكلف • ظهرت مبدأ من مبادىء الاسلام التي تمثلت في عمر •

فمتى نصيح بالعالم أجمع : قف •• لنا السبق في اعلان حقوق الانسان ؟ أظهرناها الى حيز التطبيق في دولتنا الاسلامية الاولى • وكل تباه بها اليوم دجل وكذب ، وكل مناداة بهـا اليوم رياء وتمويه ، فحقوق الانسان تنهب أمام أعين العالم كله •

ساقني الى ما سبق ، عمر رضي الله عنه ، هذا الانسـان

الرحيم ، الذي هجر النوم حبا في راحة الرعية فهـو الذي قال لمعاوية بن حـُدَيج[1] : « لئن نمت النهار لاضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لاضيعن نفسي ، فكيف النوم مع هذين يا معاوية ؟ » • رضي الله عنه لقد وصف الصحابة نومه بقولهم : « كان نومـه خفقات في ساعات متفرقة من ليل ونهار » •

والآن •• الى حصن بابليون ، لتكون لنا معركته عبرة وأسوة في مجالين :

ـ في مجال العدو : لينهج الابناء اليوم نهج الآباء بالامس ، ليكونوا فاتحين محررين انسانيين • فلقد قهر آباؤهم الاعداء دون عنت ، وفتحوا البلاد دون عنجهية ، وملكوا الارض دون استعمار ، حققوا ذاتيتهم •• فأقاموا دولة ، وأنجزوا أعمالا عجزت عنهـا البشرية بعدهم •

ـ وفي مجالٍ ثانٍ داخلي في النفس : ألا وهو فتح حصن القلب والنفس ، ليحل نور الايمان الذي من ثماره : طرد الكذب ليحل مكانه الصدق وطرد الخيانة ليحل مكانها الامانة ، وطرد حب الدنيا ليحل محله حب الله ورسوله ، وطرد الجهل والتواكل ، ليحل مكانهما العلم والمعرفة والعمل والانتاج ، وطرد التخلف والكسل ، ليحل مكانهما التقدم والجد • فيصبح الحصن خيرا

---

(١) معاوية بن حديج « أو ابن خديج » ، أبو نعيم الكندي ، الامير الصحابي ، قائد الكتائب « كما نعته الذهبي » ، ولي المغرب مرارا لمعاوية بن أبي سفيان آخرها سنة ٥١ هـ ، واستولى على صقلية ، وفتح بنزرت ، توفي سنة ٥٢ هـ • « الاعلام ، ج : ٨ ، ص : ١٧١ » •

محببا لنفوس الخلق ، منتجا ، عاملا ، انسانيا •• يشع نورا ، أينما جئته لمست منه خيرا وعلما وتقدما ، وعزة واباء •

وفي القسم الثاني من هذا الكتاب ، سنرى أحداث « ذات الصواري » ، أول معركة بحرية عربيـــة خاضها المسلمون وهم حديثو عهد بحروب البحر •

لن يبقى البحر المتوسط بحرا روميا خاضعا لسطوة وطول باع اسطول الروم في البحار ، ولضخامة عدد سفنه، وخبرته وفنون الابحار •• بل سيصبح البحر المتوسط عربيا تتيه فيه الســـفن العربية الاسلامية ، المصنوعة بأيد وطنية عربية اسلامية ، وفاتحة ذلك كله •• معركة « ذات الصواري » ••

فالى المادة التاريخية

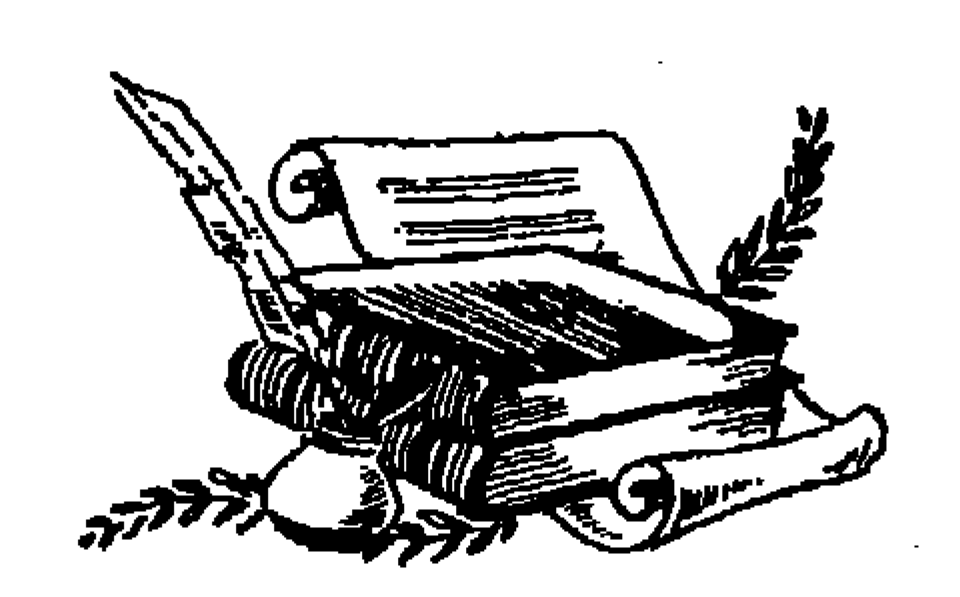
مع بركة الله

شوقي أبو خليل

ص•ب : ٦٢٢٢

دمشق ـ سورية

دمشق : ٢٦ المحرم ١٣٩١ هـ
٢٣ آذار ١٩٧١ م



حِصْنُ بَابِلْيُون

مصر قبيل الفتح

*** « تحت سلطة الروم : ضرائب وخلافات دينية ، فانتظروا الخلاص .. »**

★ كانت مصر قبيل الفتح ، احدى الولايات التابعة للدولة الرومانية . استولى عليها الروم سنة ٤٠ قبل الميلاد ، فجعلوها تمدهم بما يحتاجون من الغلال ، ورافق ذلك انحطاط في العلم والعرفان، واغلاق أبواب المناصب العالية أمام سكان مصر الاصليين، وزادت عليهم الضرائب زيادة كبيرة ، شملت كل انسان في مصر ، **« حتى شملت الاشخاص والاشياء ، فكانت تجبى على الرؤوس والصناعات ، وعلى الماشية والاراضي ، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع ، بل كانت تجبى على المارة .. رجالا ونساء ، تجارا وغير تجار ، ومن صناع السفن ، ومن زوجات الجنود ، وعلى أثاث المنازل ، ولم تقتصر الضرائب على الاحياء ، بل تعدتها الى الموتى ، حتى انه كان لا يسمح بدفن الميت الا بعد دفع ضريبة معينة »(١) .**

كما ألزم المصريون بايواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان ، وتقديم ما يلزمهم من الحاجات ، وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم ، ولو أرهقهم ذلك ، أو كان

---

(١) المؤرخ ملن : Miline ، في كتابه : تاريخ مصر تحت الحكم الروماني.

فوق طاقتهم • والحق أن ذلك كله جعل الشعب في ضنك من العيش ، حتى وصل الظلم في النهاية الى الزام الشعب بأن يقوم بغذاء الجنود كلهم ، فأدى هذا الى أعباء مرهقة أضعفت الشعب المصري ، وبالتالي جعلته يسخط على الحكم الروماني الظالم المستبد ، الذي ركز على جباية المال ، وامتصاص خيرات مصر ومواردها بأي شكل •

أما الخلافات الدينية فلا يستهان بها ، فمسيحيو مصر كانوا من الارثوذكس[1] ، بينما كانت عاصمة الدولة الرومية كاثوليكية[2] ، فقام خلاف كبير وخطير ، بين المصريين والروم ، بسبب ظهور مذهبين جديدين في الديانة المسيحية :

ـ اليعقوبي : ويقول أتباعه بامتزاج الطبيعتين الالهية والبشرية في المسيح ، وذلك بعد التجسد •

ـ الملكي : ويعتقد أتباعه أن الابن مولود من الاب قبل الدهور ، وانه غير مخلوق ، اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم ، فصار واحدا وهو المسيح[3] •

لما سبق •• فلا عجب اذا أصبح سكان مصر في ضيق وبغض لحاكمهم الظالم المستبد ، الذي ما فكر في اصلاح أو خير ، وجعل

---

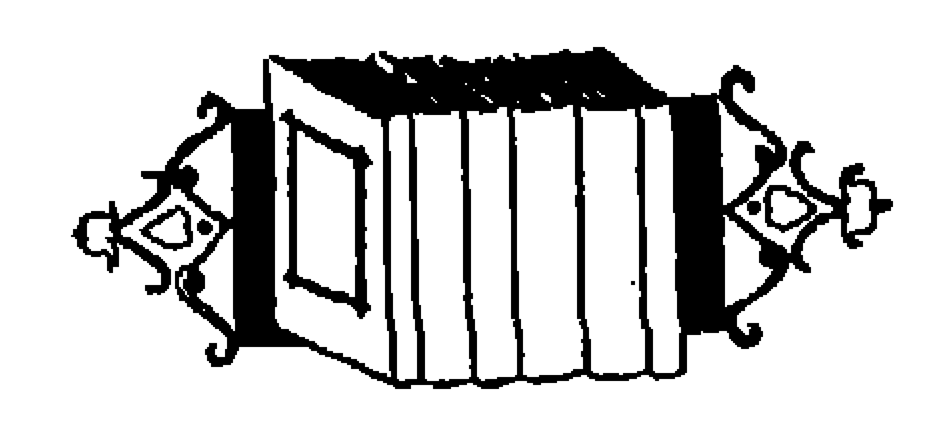
(١) الارثوذكس : تعني الفكر المستقيم •

(٢) الكاثوليك : تعني « الجامع » ، أي أن البابا تجمع رئاسته جميع المؤمنين في أوروبا •

(٣) كان من اثر هذا الخلاف ، أن عقد مجمع خلقدونية عام ٤٥١ ميلادي •

المصريين في تيه فكري ، بسبب الخلافات الدينية ، مع فقر وحاجة ، لذلك فرح المصريون بظفر المسلمين في اليرموك وبانهزام الروم وانسحابهم من سورية • وكان سرورهم أعظم عندما سمعوا عن معاملة العرب المسلمين الفاتحين للشعوب ، فعلموا علم اليقين ، أن المسلمين ليسوا كغيرهم من الفاتحين ، وما تصور المصريون فاتحا ما أراد إلا خير الشعوب ، ونشر العدالة والكرامة والمساواة ، حتى بين الفاتح المسلم ، وأهل البلاد المفتوحة ، كلهم سواء ، وأكرمهم عند الله أتقاهم •

والمؤرخ المطلع ، يعتقد جازما ، أنهم تمنوا أن يكون خلاصهم المرتقب من ظلم الروم ، على يد أعدل الناس ، وأنصف الناس ، على يد أرحم البشر للبشر •• على يد المسلمين •



الطريق الى مصر

* « انك ان فتحتها ، كانت قوة للمسلمين، وعونا لهم » •

عمرو

★ قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الجابية ، قرب دمشق ، سنة ١٨ هـ ــ ٦٣٩ م فأتاه عمرو بن العاص[١] ، أحد القادة الاربعة ، الذين ندبهم الصديق لفتح الشام وفلسطين • وكان من نصيب عَمْرو ، فتح فلسطين ، التي كان واليها من قبل الروم : « أرطبون » • وقد قال عمر بشأن عمرو وأرطبون : **« قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج »**• فانفرج الموقف عن فتح فلسطين كلها على يد عمرو بن العاص •

قال عمرو لامير المؤمنين عمر : « ائذن لي في المسير الى مصر، انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم » •

---

(١) أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، فاتح مصر ، وأحد عظماء العرب ودهاتهم ، وأولي الراي والحزم والمكيدة فيهم ، أسلم في هدنة الحديبية ، وولاه النبي ﷺ امرة جيش « ذات السلاسل » ثم استعمله على عمان ، ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو الذي افتتح قنسرين ، وصالح أهل حلب ومنبج وانطاكية ، ثم مصر فافتتحها ، كان في الفتنة مع معاوية بن أبي سفيان ، ولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هـ ، توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ ، وله في كتب الحديث ٣٩ حديثا •

تردد عمر في الامر ، فقد أشفق على المسلمين ، أن يصيبهم ارهاق من حرب يتلوها حرب ، وخصوصا أن عددهم قليل ، اذ لم يتمكن عمـرو أن يجمع لفتح مصر جيشـا كافيا في عـدده وعُدده .. لتفرق جند المسلمين في الشام والجزيرة وفارس ، لقد تعددت الجبهات ، وتوسعت رقعة البلاد ، فانتشر الجند .

أضف الى ذلك .. خشية عمر من التوسع في الفتح دون أن ترسخ أقدام المسلمين وتتثبت في البلاد المفتوحة ، فالهدف مـن الفتح ، نشر الاسلام ، باظهار حسن المعاملة ، وحسن السيرة ، وكرم الخلق وأرقى مراتب التربية ، ليعشق أهل المناطق التيفتحت دين الله ، متمثلا في أعمال وسلوك وشخصية الفاتحين ، وذلك بشكل عملي .

★ لكن عَمْراً ، على الرغم مـن ذلك ، هون الامر على عُمَر ، فقد أراد أن يتم فتح مصر على يديه ، ليكسب هذا الشرف العظيم في نشر الاسلام فيها ، وخصوصا أنه وقف على أحوالها في الجاهلية ، عند قدومه اليها تاجرا عدة مرات ، انه عالم بمسالكها ، وبتبرم أهلها من حاكمهم الرومي .

ركز عمرو في اقناعه لسيدنا عمر على أن فتح وتحرير مصر ، معناه تثبيت فتوحات الجنوب العربي وأن بقاء مصر في يد الروم ، يعرض سيادة العرب في بلاد الشام لخطر هجوم من الغرب ... وما زال عمرو بعمر ، حتى أذن له بقصدها ، وعقد له اللواء فسار عمرو باتجاه مصر ومعه أربعة آلاف رجل فقط .

★ أمر عُمَرُ عَمْراً بالمسير ، وقال له : اني مرسل اليك كتابا ، وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر ، فان أدركك قبل أن تدخلها ، أو شيئا من أرضها ، فانصرف . وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره .

سار عمرو الى مصر عابرا فلسطين من شمالها الى جنوبها ؛ وفي رفح[1] ، وصله كتاب أمير المؤمنين ، فلم يتسلمه من حامله ؛ حتى شارفَ العريشَ[2] ، فأخذ الكتاب ، وقرأه على أصحابه ، فاذا عمر يأمره فيه بالانصراف ان لم يكن قد دخل أرض مصر ، ولكن عَمْراً الآن في أرض مصر ، فأمر الجيش بالمسير على بركة الله .

اخترق الجيش سيناء سنة : ١٨ هـ ، ففتح العريش من غير مقاومة تذكر ، لان حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف في وجه المسلمين المجاهدين زمنا طويلا ، ولعدم وجود حامية رومية بها . ثم غادر عمرو العريش ، سالكا الطريق الذي سلكه في تجارته الى

---

(١) رفح : نزل في طريق مصر ، بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر ، « معجم البلدان ، جـ : ٣ ، ص : ٥٤ » .

(٢) عريش ، مدينة ، أول مصر من ناحية الشام على ساحل المتوسط ، وسميت عريش لان اخوة يوسف عليه السلام لما أقحط الشام ساروا الى مصر يمتارون وكان ليوسف حراس على أطراف البلاد ، فمسكوا بالعريش ، وكتب صاحب الحرس الى يوسف يقول له : ان أولاد يعقوب الكنعاني قد وردوا يريدون البلد للقحط الذي أصابهم ، فالى ان أذن لهم عملوا عريشا يستظلون تحته من الشمس فسمي الموضع العريش . « معجم البلدان ، جـ : ٤ ، ص : ١١٣ » .

مصر[1] .

★ لم يشتبك عمرو مع جند الروم في قتال حتى وصل الى مدينة « الفَرَمَا »[2] ، وهي مدينة ساحلية قديمة ، ذات حصون قوية . وكان لها ميناء على البحر ، يصل اليها جدول ماء عذب من النيل، هدمت أسوارها أيام الغزو الفارسي، ثم رمم الروم ماهدمه الفرس ، فعادت أسوارها منيعة على المغيرين . فحاصرها المسلمون أكثر من شهر ، فوقف عمرو يحمس الجمع ، ويثبت فيهم روح التضحية ، كي لا يقف طويلا أمام هذه المدينة ، وكان مما قاله :
« يا أهل الاسلام والايمان ، يا حملة القرآن ، يا أصحاب محمد ﷺ ... اننا ذاهبون لمقابلة الروم ، فاصبروا صبر الرجال ، وثبتوا أقدامكم ، ولا تزايلوا صفوفكم ، ولا تنقضوا نيتكم ، ولا تخطوا خطوة ، الا وأنتم تذكرون الله ، ولا تبدؤوهم بالقتال ، حتى يبدؤوكم ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت ، الا من ذكر الله ، ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم .. » .

تم الفتح في أول المحرم ١٩ للهجرة ، وأجمع المؤرخون على أن القبط كانوا أعوانا للعرب على حصار « الفَرَمَا » ، وهذا دليل على عدالة ورحمة ومحبة الفاتح المسلم ، وكره ظلم وجور الروم ، وهم في العقيدة سواء . وهذا دليل على أن الفتوحات

---

(١) وهو الطريق الذي سلكه ابراهيم عليه السلام ، عندما سار الى بلاد العرب بابنه اسماعيل ، وهو طريق يوسف عندما سار من الشام الى مصر زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك الفرس حين سار لغزو مصر ، وطريق الاسكندر المقدوني عندما دخل مصر من سورية .

(٢) الفرما : مدينة ساحلية من ناحية مصر ، ذكرها أبو نواس بقوله :

طوالب بالركبان غزة هاشم ... وبالفرما من حاجهن شعور

« معجم البلدان ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٥ » .

الاسلامية تغاير ما سبقها ، وتخالف في أهدافها غيرها •• ماسبق : فتوح استغلال واستعباد وارهاق وضرائب • وفتح المسلمين : رحمة ومحبة واخاء ومساواة وعدالة ••

وادعاء من يقول : فتوحات الاسلام استعمار ، ادعاء يحتاج الى دليل ، ومن قال هذا لم يقارن بين الفتوحات عبر التاريخ بروح التجرد والنزاهة والموضوعية ، بل انه يتكلم دون ميزان يقيس به الحقائق ، ويميز به الاهداف ، ويعرف به النتائج • كي يكون كلامه محترما يقدر ويسمع !!•

تابع عمرو السير حتى وصل مدينة « بِلْبِيس »[1] ، مارا بالمجدل ، ثم الصالحية ، فوادي الطليمات بقرب موقع التل الكبير، اختار عمرو هذا الطريق ، لخلوه من المستنقعات ، بخلاف غيره من الطرق •

وصل عمرو بلبيس ، فوجدها محصنة وفيها أرطبون الروم ، وقد فر من فلسطين ، والتجأ الى مصر قبيل تسليم بيت المقدس ، وخلال شهر لم تنقطع فيه الاشتباكات ، استطاع عمرو أن يفتح بلبيس ، رغم مقاومة أرطبون ومن معه •

★ ومما يذكر للمسلمين بالفخر وحسن السياسة والكياسة

---

(١) بِلْبِيس ، او بِلْبَيس ، قال المتنبي :

جزى عربا أمست ببلبيس ربها ... بمسعاتها تقرر بذاك عيونها

كراكر من قيس بن عيلان ساهرا ... جفون ظباها ، للعلى ، وجفونها

« معجم البلدان ، ج : ١ ، ص : ٤٧٩ » •

وبعد النظر ، وفتح القلوب قبل فتح البلاد ، أنه لما فتح عمرو مدينة بلبيس ، وجد فيها ابنة المقوقس حاكم مصر ، واسمها «أرمانوسة»، وكانت مقربة عند والدها ، لانه لم يكن له سواها ، الا ولد ذكر اسمه « أرسطوليس » ، وكانت « أرمانوسة » في بلبيس ، بزيارة مع خادمتها « بزبارة » هربا من زواجها من قسطنطين بن هرقل ، الذي أبغضته ، فأرسلها عمرو الى أبيها معززة مكرمة ، ولكن بعد أن أراها عن قصد ، وتفكير محكم، حياة المسلمين فيأبهى صورها: مساواة الامير والجنـدي ، النظـام والتكاتف ، الخشوع في الصلوات ، أراها نفسية المؤمن الصالح الطاهر .. أراها الاخلاق في أجمل صورها ، مما حيرها وأذهلها ..

ولما عادت الى شعبها ، كانت اعلاما ناطقا ، ونشرة متكلمة في كل مجلس لها ، عن أغرب ما رأت في حياتها عن أمة غريبة في كل شيء مما أكسب المسلمين محبة القبط ، فحسن رأيهم فيهم أكثر ، وتأملوا الخلاص والعزة في كنف الفاتحين المنقذين .



رِجَالٌ وَليسُوا كالرِّجال

* كل رجل مقام الالف :
- الزبير بن العوام ..
- المقداد بن عمرو ..
- عبادة بن الصامت ..
- مسلمة بن مخلد .

« شهادة من عمر »

★ طلب عمرو بن العاص المدد من أمير المؤمنين ، فأرسل أربعة آلاف مجاهد من قوات المسلمين بالشام ، وعلى رأسهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد . كما بعث اليه بكتاب يقول فيه :

« اني قد امددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم مقام الالف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، واعلم أن معك اثني عشر ألفا ، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة »[1] .

★ هذه هي تربية رسول الله ﷺ ، لقد ربى رجالا كل واحد منهم بألف : بايمانه وعزيمته ، وارادته وتزكية نفسه ، بأخلاقه

---

(١) « النجوم الزاهرة » ، الجزء : ١ ، ص ٨ .

ويقينه بالنصر .. فأي أمة في العالم ربت مثل هذه التربية صلى الله على المربي ، والباني الاول لهذه النفوس ، التي أصبحت بتربيته عظيمة ، وما أحرى أمتنا اليوم ، وهي تجابه عدوا لئيما حاقدا مغتصبا .. أن تعود الى هذه التربية المحمدية ، لنحقق نصرا باذن الله ، في ميدانين ، ميدان الجهاد الاصغر مع الاعداء ، وميدان الجهاد الاكبر ، جهاد النفس والهوى .

فمن هم هؤلاء الاربعة ؟

★ الزبير بن العوام بن أسد بن العزى بن كلاب القرشي الاسدي ، يكنى أبا عبد الله . أمه صفية بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله ﷺ ، فهو ابن عمة رسول الله ، وابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي ، أسلم وهو ابن خمس عشر سنة ، كان رابعا أو خامسا في الاسلام ، هاجر الى الحبشة ، ثم الى المدينة ، آخى النبي بينه وبين عبد الله بن مسعود ، قال رسول الله : **« ان لكل نبي حواريا ، وحواري الزبير بن العوام »** .

كان الزبير أول من سل سيفا في سبيل الله عز وجل ، لما شاع خبر بمكة مفاده أن الكفار أخذوا رسول الله ، أقبل يشق الناس بسيفه . شهد بدرا وأحد والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة ، وحنينا والطائف .. قتل بعد معركة الجمل ، التي حارب فيها مع علي ، عن عمر ٦٧ سنة[١] .

★ المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن قضاعة البهراوي ، المعروف بالمقداد بن الاسود ، من السابقين الاولين في

---

(١) « أسد الغابة » ، الجزء الثاني ، صفحة : ٢٤٩ ـ ٢٥٢ .

الاسلام ، هاجر الى ارض الحبشة ، وشهد بدرا ، وله فيها مقام مشهور، وهو القائل لرسول الله ﷺ : « يارسول‌الله امض لما أمرت به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : **« اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون »(١)، « ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق نبيا ، لو سرت بنا الى برك الغماد(٢) ، لجالدنا معك من دونه ، حتى نبلغه »** .

وكان أول من أظهر الاسلام بمكة ، وشهد أحد والمشاهد كلها مع رسول الله . توفي بالمدينة في خلافة عثمان ، وكان عمره سبعين سنة(٣) .

★ عبادة بن الصامت بن قيس .. الانصاري الخزرجي ، أبو الوليد .. شهد العقبة الاولى والثانية ، وشهد بدرا وأحد والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ، كان ممن جمع القرآن في زمن النبي ، وكان عبادة يعلم أهل الصفة القرآن ، وأرسله عمر مع معاذ بن جبل وأبي الدرداء ، ليعلموا القرآن بالشام ، ويفقهوهم في الدين ، فأقام عبادة بحمص .

ومما يذكر أنه بايع رسول الله على أن لا يخاف في الله لومة لائم ، توفي عبادة سنة أربع وثلاثين بالرملة ، وقيل ببيت المقدس ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، وكان طويلا جسيما جميلا(٤) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية الكريمة : ٢٤ .

(٢) بكسر الباء ، وضم الغين وكسرها . موضع وراء مكة بخمس ليال ، وقيل بلد باليمن « ياقوت » .

(٣) « أسد الغابة » ، الجزء الخامس ، صفحة : ٢٥١ وما بعدها .

(٤) أسد الغابة » ، الجزء الخامس ، صفحة ١٧٤ وما بعدها .

★ مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نياز بن كوذان بن عبد ود ... الخزرجي الانصاري الساعدي ، كان مولده حين قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرا ، وقيل لما قدم النبي المدينة كان له أربع سنين ، وعلى أية حال ، هو من الرعيل الذي لم يعاصر الجاهلية ، تربيته اسلامية كاملة ، ترعرع على الإيمان فصار بألف رجل .

روى عن النبي ﷺ (١) :

قال مجاهد : كنت أرى بأني أحفظ الناس للقرآن حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد الصبح ، فقرأ سورة البقرة ، فما أخطأ واوا ولا ألفا .. توفي سنة اثنتين وستين للهجرة .

هذه لمع من سير هؤلاء الذين كان واحدهم بألف . ماضيهم العريق في الاسلام يشهد لهم ان ذخيرتهم طيبة . وعمر على كل حال ، خبير بمعادن الرجال ، يعرفهم بحاسة لا تخطىء ، لقد عرف ما في قلوب هؤلاء من ايمان ويقين ، فقيمهم ــ وهو الخبير العليم بهم ــ فكان واحدهم بألف ، فهل سيحققون شيئا في فتح مصر ؟

هذا ما ستراه في صفحات تالية ..

★ وصل هذا المدد بقيادة فارس رسول الله، الزبير بن العوام، الى « عين شمس »(٢) ، فسار عمرو لملاقاته ليكسب شرف استقبال

---

(١) راجع مسند الامام احمد ، ١٠٤/٤ .

(٢) عين شمس : اسم مدينة فرعون موسى بمصر ، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ ، وليست على شاطىء النيل .

« معجم البلدان ، ج : ٤ ، ص : ١٧٨ » .

أصحاب رسول الله، ولكن «تيودور» قائد الروم، تقدم في عشرين ألفا ليضرب المسلمين ضربة قاصمة ، قبل وصول المدد اليهم ، ولكن عَمْرا تنبه للامر ، فوضع كمينا في « الجبل الاحمر » ، شرقي العباسية ، وآخر على النيل قريبا من « أم درنين » ولاقاه ببقية الجيش ، ولما نشب القتال بين الفريقين ، خرج الكمين الذي كان في الجبل الاحمر ، وانقض على الروم ، فاختل نظامهم ، واضطرب تيودور ، فتراجع لينظم قواته ، فقابله الكمين الذي كان بقرب « دنين » ، فأصبح تيودور وجيشه بين جيوش المسلمين من ثلاث جهات ، فحلت به الهزيمة ، فركب بعضهم في النيل ، وفر الى حيث لا يدري ، وفر قسم كبير منهم الى حصن بابليون ، فقويت الحامية في هذا الحصن •

★ لم يبق أمام عمرو الا حصن بابليون[1] ، فان فتح ، فتحت مصر كلها ، ولكن طال بجيش عمرو المكوث في أرض مصر ،

---

(١) اصلها « باب اليون » راجع الطبري ، ج : ١٠ ، ص : ٤٩٣ • ط دار المعارف • وجاء في « معجم البلدان ، ج : ١ ، ص : ٣١١ » مايلي :

بابليون : اسم عام لديار مصر بلغة القدماء ، أو اسم لموضع الفسطاط خاصة ، وقيل بابليون كان ملكا من سبأ ومن ولده عمرو بن امرىء القيس ، كان ملكا على مصر في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام ، وقال ابو صخر الهذلي :

وماذا ترجي بعد آل محرق ... عفا منهم وادي رهاط الى رحب
خلوا من تهامي ارضنا ، وتبدلوا ... بمكة بابليون والربط بالعصب

وقال كثير بن عبد الرحمن :

جرى بين بابليون، والهضب دونه ... رياح أسفت بالنقا واشمت

وقال عمران بن قحطان :

فساروا بحمد الله حتى احلهم ... ببليون منها الموضعات السوابق

وطالت وقفتهم أمام أسوار حصن بابليون • وانتظر الفاروق أنباء الفتح ، ولكنها تأخرت ، فليس من عادة جيش المسلمين تأخره في فتح البلاد ، لذلك •• غضب الفاروق أشد الغضب وخشي أن تكون الدنيا غيرت نفوس وقلوب الفاتحين فكتب الى عمرو يقول له :

« أما بعد ، فقد عجبت لابطائكم في فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تبارك وتعالي ، لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماكنت أعرف ، الا أن يكون غيرهم ما غيرهم ، فاذا أتاك كتابي ، فاخطب الناس ، وحضهم على قتال عدوهم ، ورغّبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الاربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة[1] ، فانها ساعة تنزل الرحمة فيها ، ووقت للاجابة ، وليعج الناس الى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم » •

هذه الرسالة توضح :

١ ـ ما كان عدو المسلمين ليقف طويلا أمامهم ، لقد كانت

---

(١) انها لحظات يحبها الله ورسوله ، عندما تحضر الصلاة ، وتهب الارواح ، ويطيب الجهاد •• راجع بحث « اللحظات الحاسمة » في الجزء الثالث من هذه السلسلة ، وذلك ص : ٥٥ •

اليرموك أياما معدودة ، وكانت القادسية ثلاثة أيام أو أربعة ••
فما بال المسلمين في مصر ، يطول بهم المكوث دون فتح ؟ هل تغيرت
نفوسهم ، وبدلتهم الدنيا ؟ لا ••• مرد ذلك الى سببين اثنين :

ـ قلة عدد المسلمين ، فقد كانوا ثمانية آلاف وأربعة رجال :
« ٨٠٠٤ رجل فقط » ، ولخبرة الفاروق بمعادن الرجال ، اعتبر
هذا الجمع « ١٢٠٠٠ رجل » •• ولا يغلب اثنا عشر ألفا عن قلة !!

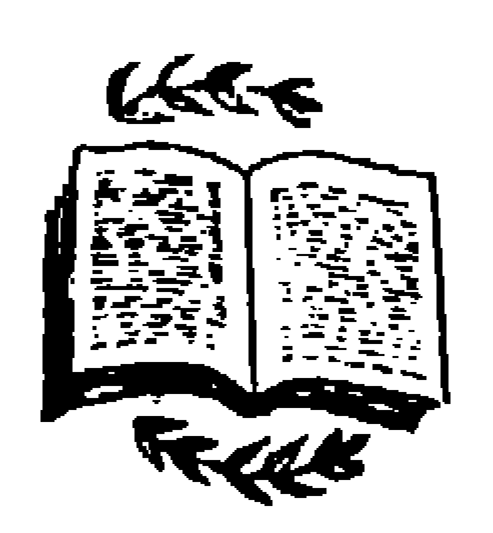
ـ والسبب الثاني ، متانة أسوار حصن بابليون ، وتجمع
الآلاف به من جند الروم •

٢ ـ تذكير عمر الفاروق لجيش المسلمين بحب الله والدار
الآخرة وبحب لقائه ، وان الجهاد لله وحده ، لا حبا بدنيا
يصيبونها •• فان أحبوا الدنيا ، فهم وعدوهم سواء ، يتركهم الله
لقوتهم المادية فقط ، وقوتهم المادية أقل بكثير من قوة واستعدادات
عدوهم •

٣ ـ حض عمر بطريق غير مباشر (مغاوير) المسلمين ، لقد
حمس (فدائييهم) وحثهم على البذل والعطاء ، وأن يكونوا القدوة
المثالية •• فكل واحد منهم بألف « ••• على ما كنت أعرف ،
الا أن يكون غيرهم ما غيرهم » • ان عمر رضي الله عنه يعلم علم
اليقين أنهم ما تغيروا ، ولكنه الحض والحث غير المباشر ، فكأنه
يريد القول : أعرفكم كل واحد منكم بألف ، ما بالكم ؟ هل
تغيرتم ؟ وهنا سيثبت هؤلاء أنهم ما تغيروا ، ولم يتبدلوا •••
وسيتم النصر الذي تريد أيها القائد الاعلى !!

٤ ــ الاعتماد على مادة الايمان في فتوحات المسلمين حتى انهم تذوقوا طعم الساعات المباركة في الاسبوع ، فبعد صلاة الجمعة تتنزل البركات ، وتهبط الرحمات فليكن الناس كرجل واحد حينها ، فلعل الله بهذه اللحظات المباركات ، ينزل نصره بصدق النية ، والصبر والثبات •.

★ رضي الله عن سيدنا عمر ، ألم نقل منذ الجزء الاول من هذه السلسلة ، إن عقله وقلبه كانا مع المسلمين المجاهدين ، يتتبع أخبارهم ، ويوجه جموعهم ، يعرف أعراض المرض ، ويصف الدواء المناسب فورا ، وبوصفة واحدة يتم الشفاء ، انه عمر « الطبيب المختص » •



حصن بابليون

*** « راينـا قوما الموت أحب اليهم مـن الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة •• أميرهم كواحد منهم •• اذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد » •**

★ ثبتت قدم المسلمين في « أم دنين » و « عين شمس » التي صارت مركز القيادة الحربية لعمرو ، ولم يبق أمــام المجاهدين سوى « حصن بابليون » •

لقد حاصره عمرو بمن معه عام ٢٠ للهجرة ، وكان ذلك وقت فيضان النيل[١] ، مما أعاق احراز النصر ، فطال الحصار للاسباب التالية :

١ ــ فيضان النيل •

٢ ــ تمركز قوات رومية في داخل الحصن ، مع من فر من « أم دنين » فكثر عدد الجند الرومي في الحصن •

٣ ــ أسوار الحصن متينة مرممة •

---

(١) يفيض النيل في آخر فصل الصيف بسبب المياه الهابطة اليه من هضبة الحبشة ، حيث الامطار الموسمية الصيفية ، ويبلغ ارتفاع مياه النيل اقصاه في شهر ايلول ، وتصل غزارته حينئذ الى ١٠ آلاف م٣/ثا •

٤ ــ قلة معدات الحصار مع الجند المسلمين .

ومع ذلك فالحصار باق على الحصن ، والمؤونة تتناقص في داخله ، فأحــرج موقف المقوقس في داخله ، وأعجب بالمسلمين وبشجاعتهم وصبرهم ، فخرج مع نفر من قومه بسفن ولحقــوا بجزيرة الروضة ، وكتب الى عمرو :

« انكم قد ولجتم بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وانما أنتم عصبة يسيرة[1] وقـــد أظلتكم الروم ، وجهزوا اليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وانما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الامر بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم أن تندموا ان كان الامر مخالفا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »* .

---

(١) لما قدم عمرو من الشام فرق اصحابه ليرى العدو انهم اكثر مما هم ، فلما وصل حصن بابليون بادره رجل رومي بأن قال ، قد رأيناك ما صنعت ، وانما معك من اصحابك كذا وكذا ، فلم يخطئوا برجل واحد ، كما نشر الروم حول الحصن ، « حسك الحديد » ، كما فعل الفرس في نهاوند ، وحسك الحديد ، أسلاك كالشوك تعمل مـن الحديد ، تلقى حول المعسكر ، لتنشب في رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له ، وهي المعروفة في أيامنا هذه : « الاسلاك الشائكة » .

ومما ذكره أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » الجزء الاول ، ان عمرا دخل الحصن ، وتناظر مع صاحبه ــ وقد يكون المقوقس ــ ، فقــال عمرو : اخرج واستشير اصحابي ، وقد كان صاحب الحصن اوصى الذي على الباب =

* (النجوم الزاهرة) ، جـ : ١ ، ص : ١٠/١١ .

فلما أتت عَمْراً رُسُلُ المقوقس ، حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لاصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم !

لقد استقبل عمرو رُسُلَ المقوقس كما تستقبل وتحترم الوفود ، ولكنه أراد أن يطلع الرسل على حال جند الاسلام ، وكيف حياتهم ! كيف محبة بعضهم لبعضهم الآخر ! كيف صلاتهم ؟ كيف يتعاملون ، وكيف يحترمون ويُحترمون !!

ان ابقاء الرسل عند المسلمين لمدة معينة ، خطة متبعة في فتوحاتنا الاسلامية ، وهي خطة تحقق أكثر من هدف ، انها تعطي فكرة عملية (برؤية العين ، فتصبح الفكرة يقينا في نفس المشاهد) عن حياة المسلمين ، فيعظمون في نفوس أعدائهم .. خصوصا اذا رأى رسل الوفد : التواضع ، المحبة ، التكاتف ، التضامن ، الرحمة ، الايمان والتقوى ، محبة الجند للقائد ، ومحبة القائد لجنده .. جمع متمثل بواحد ، وواحد يمثل الجمع .. بنيان مرصوص يشد ويكمل بعضه بعضا .

=

اذا مر به عمرو أن يلقي عليه صخرة فيقتله ، فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال له : قد دخلت فانظر كيف تخرج ، فرجع عمرو الى صاحب الحصن فقال له : اني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت ، فقال في نفسه : قتل جماعة أحب الي من قتل واحد ، فارسل الى الذي كان أمره بما أمره من أمر عمرو ألا يتعرض له رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم فخرج عمرو !! انه من دهاة العرب .

وعند عودة الوفد ، يحدث بما رأى حتما ، فيحطم من حيث لا يدري معنويات قومه ، فتهبط معنوياتهم الى ما دون الصفر ، وبذلك سيدخلون حربا يعلمون أن معنويات النصر ليست الى جانبهم ، ولا سبيل للمقارنة بين جيش يدخل الحرب وعدوه في عينه عظيم كبير متماسك ، وبين جيش متأكد من سبيل النصر ، وان النصر من عند الله ، وهم جند الله .

★ ولما رد عمرو رسل المقوقس قال لهم : انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال : « اما أن دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا ، وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، واما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال : كيف رأيتم ؟ قالوا :

« رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحَد" يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم »(١) .

فقال المقوقس عند ذلك : والذي يُحلف به ، لو أن هؤلاء

---

(١) « النجوم الزاهرة » ، جـ : ١ ، ص : ١١ ، و « فتوح مصر وأخبارها » ، لابن عبد الحكم طبعة ليدن ١٩٢٠ ص : ٦٥ وما بعدها .

استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد !
ولئن لم نغنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهـــذا النيل ، لم
يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض ، وقووا على الخروج
من موضعهم •

فرد عليهم المقوقس رسله يقول لهم : ابعثوا الينا رســلا
منكم ، نعاملهم ونتداعى عندهم الى ما عساه يكون فيه صــلاح
لنا ولكم •

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر ، أحدهم عبادة بن الصامت،
وكان طوله عشرة أشبار[1] ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم،
وألا يجيبهم الى شيء دعوه اليه ، الا احدى هذه الخصال ، معللا
ذلك بقوله : فان أمير المؤمنين ، قد تقدم اليّ في ذلك وأمرني ألا
أقبل الا خصلة من هذه الخصال الثلاث ، وكان عبادة أسود ،
فلما ركبوا السفن الى المقوقس ، ودخلوا عليه تقدم عبادة ، فهابه
المقوقس لسواده ، وقال : نحوا عني هذا الاسود ، وقدموا غيره
يكلمني فقالوا جميعا : ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو
سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ،
وقد أمره الامير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله •

فقال المقوقس : **وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم
وانما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ! انه وان كان أسـود
كما ترى ، فانه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ،**

---

(١) كان عبادة طويلا رضي الله عنه • راجع أسد الغابة ، ج : ٥ ، ص : ١٧٤•

وليس ينكر السواد فينا ، فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسـود وكلمني برفق ، فانني أهاب سوادك وان اشـتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة ، فتقدم اليه عبادة فقال :

« قد سمعت مقالتك ، وان فيمن خلّفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سوادا مني ، وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، واني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا ، وكذلك أصحابي ، وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجـة للاستكثار منها الا ان الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعـل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب ، أم لا يملك الا درهما ، لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على هذه بيده ويبلغه ما كان في الدنيا ، لأن نعيم الدنيـا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، انما النعيم والرخاء في الآخرة، بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا الا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه ، وجهاد عدوه » .

فلما سمع المقوقس منه قال لمن حوله : « هل سمعتم مثـل كلام هذا الرجل قط ! لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب عندي

من منظره ، ان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الارض ، وما أظن ملكهم الا سيغلب الارض كلها » • ثم أقبل المقوقس على عبادة ابن الصامت فقال :

« أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على ما ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وانا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا[1] وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرقّ عليكم لضعفكم وقلتكم ، وقلة ما بأيديكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضوها وتنصرفون الى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به » •

فقال عبادة : « يا هذا ، لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنّا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، ان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله اذا قدمنا عليه ان قُتِلنا من آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من

---

(١) بقي المسلمون يحاصرون بابليون ، سبعة اشهر •

شيء أمرّ لأعيننا ، ولا أحب الينا من ذلك ، واتّا منكم حينئذ على احدى الحسنيين ، امّا أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منها ، وان الله عز وجل قال لنا في كتابه : **« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين »** (الآية) • وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده الى بلده ، ولا الي أرضه ، ولا الى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه وأهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا •

وأما قولك انا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ، ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذي تريده فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك اليها ، الا خصلة من ثلاث ، فاختر أيّها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ، بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبله الينا •

اما اجابتك الى الاسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته ــ صلوات الله عليهم ــ أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فان فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا ، وكان أخانا في دين الاسلام، فان قبلت ذلك وأصحابك ، فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولن نستحل أذاكم ، ولا التعرض لكم ، وان أبيتم الا الجزية، فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم

على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم[1] ، ونقوم بذلك عنكم اذ كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة للسيف حتى نموت عن آخرنا .أو نصيب ما نريد منكم ، هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم »[2] .

فقال المقوقس : هذا لا يكون أبداً ، ما تريدون الا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا .

فقال عبادة : هو ذلك فاختر ما شئت .

المقوقس : أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه ثلاث الخصال ؟

ــ عبادة « وقد رفع يديه » : لا ورب السماء ، ورب هذه الأرض ورب كل شيء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم .

ــ المقوقس (وقد التفت الى أصحابه) : قد فرغ القوم فما ترون ؟ فقالوا : أو يرضى أحد بهذا الذل ! أما ما أرادوا من

---

(١) اذن (الجزية) ضريبة بسيطة في كل عام تدفع للمسلمين مقابل الحماية . وان لم يستطع المسلمون الحماية ، تعود الجزية للمواطنين كما حدث عند فتح حمص، علما أن المسلمين يدفعون اضعاف الجزية وذلك بزكاتهم عن اموالهم .. « راجع بحث (الذميون والجزية) في الاسلام فوق الاتهام » ، الطبعة : ٢ ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) « النجوم الزاهرة » جـ : ١ ، ص : ١٥ ، و « فتوح مصر واخبارها » ص ، ٦٨ .

دخولنا الى دينهم فهذا لا يكون أبداً أفنترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لا نعرفه ! وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً ، فالموت أيسر من ذلك ، لو أرادوا أن نضعّف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا .

قال المقوقس لعبادة : قد أبى القوم فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرّتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه .

فقال المقوقس لأصحابه : أطيعوني وأجيبوا القوم الى خصلة واحدة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم من طاقة ! ولئن لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبنهم الى ما هو أعظم كارهين . فقالوا : وأي خصلة نجيبهم اليها ؟ قال : اذاً أخبركم ، أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة ، قالوا : فنكون لهم عبيداً أبداً ؟ قال : نعم ، تكونون عبيداً مسلّطين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا من آخركم ، وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلكم وذراريكم ، قالوا : فالموت أهون علينا .

★ ولكن أمر الله قد اقترب ، والنصر حانت ساعته وخصوصاً قد رغب القوم لقاء الله ، وقد خرجوا من أجله وطال انتظاره .

وكان لرسالة عمر الى عمرو أثر كبير في نفس الزبير بن

العوام . فقال : اني أهب نفسي لله تعـالى ، وأرجو أن يفتح الله بذلك للمسلمين . فوضع سلـّماً الى جانب الحصن ، ثم صعـد وأمرهم اذا سمعوا تكبيرة يجيبونه جميعاً ، فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف .. لقد جلجل الفضاء في سكون الليل بصوت فارس رسول الله من أعلى الأبراج ، وهو يهتف صائحاً من أعماقه : الله أكبر . الله أكبر .. ويصيح وقد لف رأسه بعمامة صفراء علامة حب الموت ، أو النصر .

واستفاق الروم من سكرات الفزع على قفزات جريئة مروعة .. ابتدأها العوام الى داخل الحصن . وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو ، خوفاً أن ينكسر السلم .. ومن داخل الحصن كبـّر الزبير تكبيرة ، فأجابه المسلمون من خارج الحصن ، بصوت واحد : الله أكبر .. أجابوه بنشيدهم في اليرموك ، وهتافهم في القادسية ، وترنيمتهم المحببة في نهاوند .

ابن العوام داخل الحصن عند بابه من الداخل يزيح الحراس عن الباب[1] ، وهو يكبر ، والمسلمون يكبرون من خارج الحصن ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً الحصن ، واستطاع ابن العـوام فتح باب الحصن ، واقتحم المسلمـون

(١) استطاع ابن العوام أن يزيح الروم عن باب الحصن ويفتحه للمسلمين بعد أن تمركز بحنكة في الفسحة الضيقة الممتدة من داخل الباب الى اول جدار السور الداخل ، وهي تساوي ثخانة أو ذرع حائط السور ، مما جعل ابن العوام امينـا وكذلك مجنبتاه ، قاتل في هذه الفسحة التي لا تتسع الا لقلة من الرجال ــ اثنين أو ثلاثة ــ ، فعطل الآخرين ، فهم ينظرون القتال ولكن كيف يقتربون ؟ ومن أين ؟

الحصن • وقد امتلكوا بذلك مفتاح مصر ، ليحرروها من ظلم الروم ، ولينقذوها من عسف الطغاة وضرائبهم الباهظة •••

ولما خاف المقوقس على نفسه ومن معه ، سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه ••• فأجابه عمرو الى ذلك •

★ وهكذا تحققت فراسة الفاروق في قيم الرجال •• ومعايير البطولة•• وطابت نفسه بالنصر•• فالدنيا لم تغير معادن من رباهم رسول الله ﷺ ، وطابت المدينة المنورة بالنصر الحاسم الذي سطره ابن العوام وحده ، وكان حقاً بألف رجل ••

★ من بنود الصلح •• الرحيم العادل ، الانساني الكريم ، على الرغم من فتح مصر عنوة :

« فاجتمعوا على عهد نبيهم ، واصطلحوا على أن يُفرض على جميع من بمصر ، أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين على كل نفس[1] ، شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعلى ان للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، وقد نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم

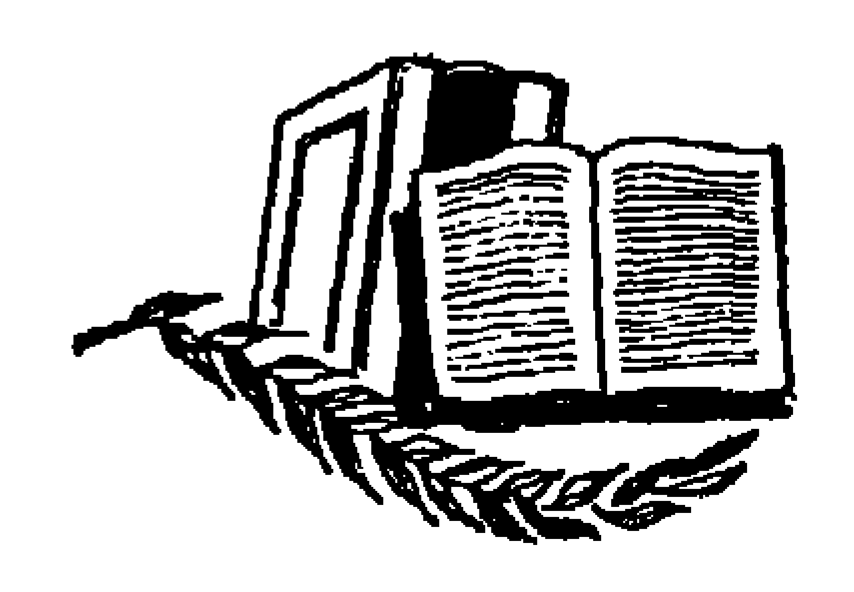
(١) على كل نفس قادرة على حمل السلاح فقط ، والجزية عصمة للانفس والاموال والاراضي •• أين هذه من وصف المؤرخ ملن Miline ، في كتابه : تاريخ مصر تحت الحكم الروماني ؟!! الذي ورد في أول البحث : مصر قبيل الفتح •• لقد شملت الضرائب النساء والاطفال والشيوخ حتى الموتى في عهد الرومان !!•

وأموالهم لا يُتعرض لهم في شيء منها »[1] .

★ وممن شهد فتح مصر من الصحابة مع عمرو بن العاص :

الزبير بن العوام ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، خارجة بن حذامة العدوي ، عبد الله بن عمر بن الخطاب ، قيس بن أبي العاص السهمي ، المقداد بن الأسود ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، نافع بن عبد قيس الفهري ، أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، عبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ، ووردان مولى عمرو بن العاص وكان حامل اللواء ...

★ وكان فتح مصر يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة .



(١) « النجوم الزاهرة » ج : ١ ، ص : ١٧ ، و ص : ٧٠ في كتاب : فتوح مصر واخبارها . وفتوح البلدان للبلاذري ، ط عام ١٩٥٩ ، صفحة ٢١٩ .

نتائج الفتح

* « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .
– قرآن كريم –

* « ستفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » .

– رسول الله –

★ فتحت مصر ، وأمضى الطرفان الصلح ، وكتب عمرو كتاب أمان :

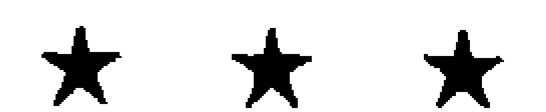
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم ، وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص ولا تساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم[1] ، فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة . وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم

(١) اللصوت : اللصوص .

والنوبة فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا ، عليهم ما عليهم أثلاثاً ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم ، على مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين ، وعلى النوبة[1] الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً ، وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة »[2] . وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر .

كما طلب عمر من عمرو أن يصف له مصر ، فوصفها وصفاً دقيقاً سر له عمر وقال :

« لله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لي خبراً كأني أشاهده » .



★ نتائج الفتح :

١ ــ لولا فتح مصر ما انتشر الاسلام ولما انطلق محرراً منقذاً في شمال أفريقيا .

---

(١) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أولها مدينة أسوان .

(٢) « النجوم الزاهرة » ص : ٢٤ ، في الجزء الاول .
« معجم البلدان ، ج : ٥ ، ص : ٣٠٩ » .

٢ ـ لم يشتط العرب المسلمون في معـاملة القبط حفظـاً لوصية رسول الله ، فعاملوهم بمنتهى اللين وهذا ما كانوا يتوقعونه منهم ، وهذه المعاملة الطيبة جزء من طبيعة الفاتح المسلم مع كل الشعوب ، لا عنف ولا قسوة ، لا حقد ولا رهبة ولا تسلط ، بل لين ومحبة وسلام ورأفة .. لقد شهد القبط في جيش عمـرو المساواة ، ثم شهدوها في معاملة الفاتحين لهم : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » ، فأي فاتح عبر التاريخ حقق هذه المعاني ؟ الاسكندر أم آتيلا ؟ جنكيز خان أم هولاكو ؟ يوليوس قيصر أم نابليون !!؟؟

٣ ـ الجزية رسم بسيط ، وضريبة صغيرة يسيرة لا تعادل عُشْرَ ١/١٠ ما كان يدفعـه القبط الى الروم وهي الآن على الشباب فقط ، وأيام الروم كانت على كل رأس دون استثناء .. كما أطلق العرب المسلمون الحرية الدينية للقبط ، ترك لهم عمرو كنائسهم وكتب لهم عهداً بذلك أوردناه قبل أسطر معدودات .

حتى ان بطرق القبط خطب بعد الفتح قائلا : « لقد وجدت النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون ـ الروم ـ » . ففي هـذه الكلمات ، يتجلى مبلغ الطمأنينة التي عاشها شعب مصر بعد الفتح ، فهل الاسلام استعمار ؟ أم منقذ للشعوب ؟!؟ قليل من التفكير قبل النطق بالاحكام والنظريات أيها المثقفون !!.

لذلك يقول توماس آرنولد : « كفل ـ عمرو بن العاص ـ الحرية في اقامة الشعائر الدينية ، وخلـَّصهم بذلك من هذا التدخل

المستمر الذي أنثوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني . ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب أو النهب » .

وقال آرنولد : « ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب ، قبل كل شيء الى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عُرف به من الادارة الظالمة ، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت » .

« وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الاسلام على نطاق واسع كان راجعاً الى الاضطهاد او ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين .. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط الى الاسلام قبل أن يتم الفتح »[1] .

★ وهكذا .. (شهد شاهد من أهله) يامن تطلقون الأحكام جزافاً . هذه شهادة ليست للمؤمنين ، اننا نعرف انسانية ورحمة الاسلام من قبل شهادة السير توماس آرنولد ، ولكنها لمن يرضخ لقول السير أو المسيو .. ولا يأبه بقول مؤرخ أو عالم عربي مسلم ! انها لمن يرى الحقيقة هناك ، ولا يراها هنا !!

٤ ــ ترك العرب المسلمون الارض لأهلها مشجعين الزراعة ، وأخذوا على عاتقهم حمايتها مع تأمين السكان على أنفسهم ونسائهم

(١) توماس ارنولد في كتابه « الدعوة الى الاسلام » ، ص : ١٢٣ وما بعدها .

وما يملكون ، فشعروا براحة نفسية كبيرة لم يعهدوها من قبل ، حتى ان نص العهد صريح في أن الجزية تُخفض في حال شح النيل !! أبعد هذه الرحمة رحمة ؟!؟

٥ ـ أعاد المسلمون الامن والنظام الى مصر ، وقاموا باصلاحات عظيمة ، كتنظيمهم للادارة ، وتنصيب القضاة ، ليأخذ الضعيف حقه ، ولنصرة المظلوم •• ورسموا خطة جباية ، وعنوا عناية خاصة بهندسة الري ، مع تنظيف الترع ، وبناء المقاييس ، وانشاء الجسور والإحواض ، فتحسنت أحوال القبط وزادت ثروتهم ، بعد ألم وفقر أيام العهد الرومي •

٦ ـ أعاد المسلمون وصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط بتنظيفهم قناة ـ سيزو ستريس ـ ، وسميت هذه القناة بعد تنظيفها بخليج أمير المؤمنين ، فنشطت التجارة ، وصارت السفن الآتية من البحر المتوسط أو البحر الاحمر تدخل في النيل والقناة •

٧ ـ كبرت آمال المسلمين وتوسعت آفاقها على نغمات النصر وأصداء الفتوح ، وأصبح كل فرد منهم لا يعبأ بالمال على وفرته ، وأصبح هم الجميع أن تعم كلمة التوحيد أقطار الدنيا ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله كله ، وهكذا •• أصبحت مصر أيام عثمان منطلق الجيوش الى شمال أفريقية حتى بحر الظلمات •

٨ ـ كما بدأ المسلمون في بناء السفن ليتم لهم بناء الجيش القوي المكتمل براً وبحراً ••

ذَاتُ الصَّوَارِي

حصن بابليون (٤)

المسلمون والبحر

* « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ، انه كان بكم رحيما ، واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر ، عرضتم ، وكان الانسان كفورا » •

« الاسراء : ٦٦ ، ٦٧ »

★ لما ولي معاوية بن أبي سفيان الشام ، ألح على عمر الفاروق في غزو البحر ، وذلك لقرب الروم من السواحل العربية ، ومما كتبه معاوية لسيدنا عمر « ان قرية من قرى حمص ليسمع بنباح كلابهم ، وصياح دجاجاتهم » • ومعاوية يعني جزيرة أرواد ، القريبة من الساحل • واحتار عمر ، وشغل قلبه ، أيسمح للناس بركوب البحر وما ركبوه من قبل ، مجاهدين فيه ؟!؟

★ أمام هذه الحيرة ، كتب عمر الى عمرو بن العاص واليه على مصر : « صف لي البحر وراكبه ، فان نفسي تنازعني عليه » • فكتب عمرو الى عمر مجيباً : **« اني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركد خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين ـ بالنجاة ـ قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق »**(١) •

(١) تاريخ الخلفاء ، ص : ١٥٥ •

قرأ عمر الفاروق كتاب عمرو بن العاص ، وأرسل قراره الذي اتخذه الى واليه على الشام معاوية قائلا :
« والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً •• وبالله لمسلم واحد أحب الي مما حوت الروم » •

وتتساءل : لماذا يقف عمر هذا الموقف ؟ وهل يُعقل أن تبنى دولة عالمية ، دون أسطول بحري ؟ عمر •• العبقرية المتميزة في كل شيء ، بحنكتها ، وسعة أفقها ، وروعة اجتهادها ، وعظمة قلبه رضي الله عنه ، هل يعقل أنه وقف موقفه هذا ، لمجرد وصول رسالة عمرو من مصر ؟؟

وقف عمر رضي الله عنه موقفه لأسباب :

١ ــ خوفه على أرواح المسلمين ، حيث أنهم ما عهدوا ركوب البحر مقاتلين فيه ، وأسطولهم فتي حديث ، ودولة الروم عريقة في علوم البحار وفنونه ، تسيطر بأسطولها القوي « متكئة على خبرة طويلة ، ورصيد كبير من التجارب » على البحر المتوسط ، فهو منعهم من الغزو في البحر شفقة عليهم •

٢ ــ غزا العلاء بن الحضرمي[1] ، الذي كان على البحرين من قبل عمر ، في البحر ، وقد نهاه عن ذلك فأصيب المسلمون على ساحل فارس المقابل للبحرين واستطاع القائد الفارسي « الهر بذ »

(١) ولاه النبي البحرين ، وتوفي ﷺ وهو عليها ، فاقره أبو بكر خلافته كلها ، ثم اقره عمر ، قيل عنه : ان العلاء كان مجاب الدعوة ، ولما قاتل أهل الردة بالبحرين كان له في قتالهم اثر كبير •• راجع « اسد الغابة » ج : ٧٤/٧٥ • والكامل لابن الاثير : جـ ٢ ، ص : ٢٤٩ ــ ٢٥٢ •

أن يوقع خسارة كبيرة بجند العلاء ، فصار عمر لا يأذن لأحـد في ركوب البحر غازياً مجاهداً .

٣ ـ أرسل عمر بن الخطاب علقمة بن مجزز المدلجي[1] في البحر الأحمر في نفر من المسلمين ليرد غزوة حبشية جاءت مـن شواطىء البحر الاحمر الغربي فأصيب القوم ، فجعل عمر على نفسه وعداً ، ألا يحمل في البحر أحداً للغزو .

٤ ـ أراد عمر أن يرى أحوال البحر المتوسط وأنواءه ، فكتب الى عمرو أن يصف له هذا البحر الذي أراد معاوية أن يغزو فيه ، فجاء الرد غير مشجع ..

٥ ـ لم يبن بعد أسطول الدولة العربية الاسلامية ولم يغز النبي ﷺ في البحر ، ولم يغز خليفته الصديق رضي الله عنه ، فغزو البحر يحتاج الى استعدادات لتأمين أسطول قوي متين ، خصوصاً وقد شاهد المسلمون سفن الروم تجوب البحار ، وتصل سواحلهم ، وتهددهم في عقر دارهم !

هذه الاسباب مجتمعة كانت غير مشجعة ، ولكن عمـر ما عارض في بناء أسطول حربي ، عمر لم تكن لتفوته شاردة أو واردة من شؤون الامصار ، فهو يعلم أن أسطولا يبنى في سواحل بلاد الشام ـ في عكا خصوصا ـ وآخر يبنى في مصر .. فهـو لم يعارض هذا العمل ..

---

(١) ورد في « أسد الغابة » ج : ٢ ، ص : ٨٧ : بعث عمر بن الخطاب علقمة في جيش الى الحبشة ، فهلكوا كلهم ، فرثاه جواس (بن قطبة بن ثعلبة العذري) بقوله :

ان السلام وحسن كـل تحيـة ... تغـدو على ابن مجزز وتروح

مما سبق نستطيع القول : ان عمر لما رأى امكانات المسلمين البحرية الفتية ، اتخذ موقفه هذا ريثما يتم تحقيق مضمون الآية الكريمة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة •• » ، فالاستعدادات أولا •• ثم الغزو •• انه رضي الله عنه ما أراد ركوب البحر الا بعد اكتمال بناء أسطول المسلمين الحربي ••

أما قول سيدنا عمر : « •• **وبالله لمسلم واحد أحب الي مما حوت الروم** » ، فانه لا يدل على عدم السماح بالغزو في البحر مستقبلا بعد اتمام الاستعدادات ، فموقف عمر هذا اتخذه أيضا مع قوات المسلمين في البر في الجبهة الفارسية الشرقية ، لقد قال عمر : ان جنديا واحدا أحب اليه من ألف ألف دينار ، ورفض استعمال البراء بن مالك رضي الله عنه وقال : **« لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين ، فانه مهلكة من المهالك •• »**[1] • عمر يحب الرجل المكيث المتزن الهادىء كالنعمان بن مقرن المزني ••

اذن •• عمر أحب التريث، أحب استعمال الحكمة والاسباب، كما في البر تماماً ، ليتحقق النصر بأقل خسارة ممكنة ، فلا يُعقل أن يرضى عمر ، أن تبنى دولة الاسلام دون أسطول بحري ، وعشرات الآيات في القرآن تذكر السفن والمنشآت الجاريات في البحر •• لقد وردت كلمة بحر ومشتقاتها أكثر من أربعين مرة في القرآن الكريم[2] ، مثل :

---

(١) أسد الغابة ، ج : ١ ص : ٢٠٦/٢٠٧ •

(٢) وردت كلمة « يم » في عدة مواضع ، انظر : ١٣٥/٧ ، ٣٩/٢٠ و ٧٨ ، ٧/٢٨ ، ٤٠/٥١ •

ـ « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره •• »(١) •

ـ « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر •• »(٢) •

ـ « ألم تر أن الله سخر لكم مافي الارض والفلك تجري في البحر بأمره •• »(٣) •

ـ « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته •• »(٤) •

ـ « ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام •• »(٥) •

ـ « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون •• »(٦) •

ـ « وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام •• »(٧) •

هذه الآيات وغيرها ، ما ذكرها الله عز وجل للتسلية انها منهج ولفت نظر ، وتنبيه لأهمية البحر : **« سخر لكم الفلك ، حملناهم في البر والبحر ، والفلك تجري في البحر بأمره ، لتبتغوا من فضله »** ، (أين ؟ في البحر) •••

فعمر رضي الله عنه أوسع أفقاً ، وأعمق فهماً لآيات الله •• وليس المهم أن يغزو ، انما المهم كسب وتأمين أسباب النصر ••• وسيحين موعد انطلاق المسلمين في البحر •• فلكل أجل كتاب !!

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية الكريمة : ٣٢ •
(٢) سورة الاسراء ، الآية الكريمة : ٧٠ •
(٣) سورة الحج ، الآية الكريمة : ٦٥ •
(٤) سورة لقمان ، الآية الكريمة : ٣١ •
(٥) سورة الشورى ، الآية الكريمة : ٣٢ •
(٦) سورة الجاثية ، الآية الكريمة : ١٢ •
(٧) سورة الرحمن ، الآية الكريمة : ٢٤ •

★ ولما ولي عثمان رضي الله عنه الخلافة ، كتب اليه معاوية يستأذنه في غزو البحر، وبعد أن لج معاوية لاستكمال الاستعدادات، وافق عثمان على طلبه ، ولكنه اشترط عليه شروطاً ، فكتب اليه : **« لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه »** •

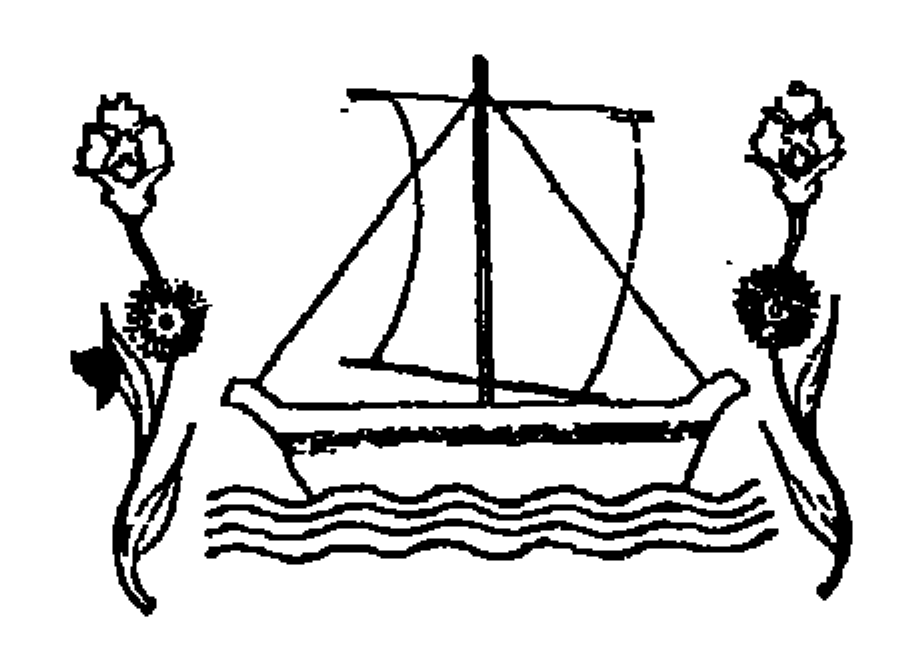
وهذا الموقف يذكرنا بموقف عمر أيضاً ، فما زال الخليفة متحفظاً لحداثة تجربة المسلمين في البحر، لذلك : « فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » •

وبالفعل سار معاوية على شرط عثمان وانتهجه • لقد بنى أسطولا بأيد وطنية ، عربية اسلاميـــة ، فكانت مراكبـــه نواة الاسطول الاسلامي الذي جعل البحر المتوسط ــ فيما بعد ــ بحيرة عربية اسلامية •

★ استعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الجاسي •• فاستطاع فتح قبرص ، وكان في هذا الجند : أبو ذر ، عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام وأبو الدرداء ••

ولما فتحت قبرص ، وتم الصلح ، بكى أبو الدرداء فسأله جبير بن نفير : ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله ؟! قال جبير : فضرب منكبي بيـــده وقال : ما أهون الخلق على الله اذا تركوا أمره ، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك ، اذ تركوا أمر الله فصاروا الى ما ترى •

وفي هذه الغزوة ، ماتت أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت الانصارية[1] ألقتها بغلتها فاندقت عنقها فماتت . وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ ، حيث أخبرها أنها أول من يغزو في البحر من أمة الاسلام .



(١) « البداية والنهاية » ، ج : ٧ ، ص : ١٥٣ .
ـ وأم حرام اسمها الرميصاء والقميصاء .

استعدادات الطرفين

*** « اراد الروم بقيادة قسطنطين استرداد هيبتهم المفقودة في البر ... ففشلوا » .**

انطلق المسلمون أيام عمر الفاروق الى شمال أفريقية ، ففتحت برقة صلحاً سنة ٢١ هـ ، ثم طرابلس الغرب عنوة سنة ٢٢هـ .

وسار نافع بن عبد القيس الفهري الى بلاد النوبة أما في عهد عثمان ، بعد أن عزل عمرو بن العاص عن مصر ، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ فكر عبد الله في غزو أفريقية جنوب ليبية ، فأذن له عثمان ، بعد أن أرسل اليه جيشا من المدينة المنورة فيه أعيان الصحابة .

انقطعت أخبار هذا الجيش عن عاصمة الخلافة ، فأرسل عثمان ، عبد الله بن الزبير لموافاته بأخبار جنده ، .. وصل ابن الزبير الى مواقع الجيش جنوب صحراء ليبية ، فلم ترق له الخطة التي كان عليها ابن أبي سرح ، فاستلم القيادة .. وشرع في تنفيذ خطة جديدة[1] أنهت المعركة في يوم واحد فقط . وعاد الى المدينة المنورة يحمل أنباء النصر .

---

(١) راى ابن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة الى الظهر فاذا اذن الظهر عاد كل فريق الى خيامه ، فقال : ان امرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في امداد متصلة وبلاد =

ثم غزا ابن أبي سرح «النوبة» حتى وصل مدينة «دُنْقُلَة» وذلك عام ٣١ هـ ، فصالح أهلها ووقع معهم معاهدة . هذا .. بالاضافة الى أن معاوية سيطر على الشواطىء في بلاد الشام وآسيا الصغرى حتى جزيرة « رودس » .

★ مما سبق نرى أن الروم قد أصيبوا بضربـة حاسمة في أفريقية ، وأصيبوا في سواحلهم بعد سيطرة الاسطول الاسلامي على سواحل المتوسط من رودس حتى برقة ، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولا بناه الروم من قبل ، فخرج بألف سفينة ، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية في البر ، فأذن عثمان رضي الله عنه للمسلمين بالغزو في البحر . فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بُسْر بن أرطاة[1] ، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مراكب مصر ، وكانت كلها تحت امرته ، ومجموعها : مائتا سفينة فقط .

=

هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وعن بلادهم ، وقد رأيت أن نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متاهبين ، ونقاتل عند الروم في باقي العسكر الى ان يضجروا ويملوا ، فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم .. وهذا ماكان وحقق ابن الزبير النصر ، وقتل قائد الروم « جرجير » .

(١) بسر بن ارطاة (أو ابن أبي أرطاة) أو « ابن ارطاة » العامري القرشي ، أبو عبد الرحمن ، قائد فتاك من الجبارين ، ولد بمكة قبل الهجرة ، وأسلم صغيرا . وروى عن النبي حديثين ، شهد فتح مكة ، ثم كان من رجال معاوية ، اســاء كثيرا لآل البيت ، ولاه معاوية على البصرة سنة ٤١ هـ ، ثم ولاه البحر فغزا الروم سنة ٥٠ هـ فبلغ القسطنطينية واصيب بعد ذلك في عقله ، توفي سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م عن نحـو تسعين سنة .

« الاعلام ، جـ : ٢ ، ص : ٢٣ » .

★ سار هذا الركب ، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في الحروب السابقة • لقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل في معارك عديدة ، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطمة ، لا يخشونه ولا يهابونه ، على الرغم من قلة عدد سفنهم اذا ما قيست بعدد سفن عدوهم ، خرج المسلمون الى البحر وفي أذهانهم : أننا سنجعل الروم اليوم يحسبون للقوة البحرية الاسلامية الفتية ألف حساب •

★ ويمكننا أن نلخص أسباب اللقاء البحري بما يلي :

١ ــ الضربات القوية التي وجهها المسلمون الى الروم في افريقية •

٢ ــ أصيب الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها •

٣ ــ خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين فيفكروا في غزو القسطنطينية •

٤ ــ أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية برا وعلى شواطئه في بلاد الشام ومصر وساحل برقة ••

٥ ــ كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج ، كي تبقى لهم السيطرة في المتوسط فيحافظوا على جزره ، فينطلقوا منها للاغارة على شواطيء بلاد العرب •

٦ ـ محاولة استرجاع الاسكندرية بسبب مكانتها عند الروم ، وقد ثبت تاريخيا مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم •

★ ما سبق كان سبب معركة : « ذات الصواري »[1] •

والسؤال الذي لم يجد المؤرخون له جواباً موحداً هو :

أين وقعت هذه المعركة البحرية الشهيرة ، التي كانت عام ٣١ هـ ، ٢٩ آب ٦٥٥ م ؟

ـ المراجع العربية لم تحدد مكانها ، باستثناء مرجع واحد على ما نعلم صرح بالمكان بدقة ، وآخر قال : اتجه الروم اليه •

ـ في « فتح مصر وأخبارها »[2] ، ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقال : قد بلغني أن هرقل قد أقبل اليكم في ألف مركب •• ولم يحدد مكان المعركة •

ـ « الطبري »[3] ، في أخبار سنة ٣١ هـ ، ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمون من الروم في أفريقية ، وقال : فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط ••

---

(١) الصواري : جمع صار ، وهي الخشبة المعترضة وسط السفينة ، وسميت المعركة كذلك لكثرة صواري المراكب واجتماعها (كما في النجوم الزاهرة •• ج ١ ، ص ٨٠) وفي راي آخر : سميت ذات الصواري لكثرة ساريات السفن التي التحمت في القتال في ذلك اليوم (١٢٠٠ سفينة عربية ورومية) •

(٢) ص : ١٩٠ طبع في مدينة ليدن عام ١٩٢٠ ، اعادت طبعه تصويرا مكتبة المثنى ببغداد •

(٣) ج : ٤ ، ص : ٢٩٠ • طبعة دار المعارف بمصر •

ــ ولم يذكر « الكامل في التاريخ »[1] مكان الموقعة أيضا. ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصر في أفريقية بالذات .

ــ وفي البداية والنهاية[2] : « فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح مَنْ أصاب من الفرنج والبربر ببلاد افريقية والأندلس، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل ، وساروا الى المسلمين في جمع لهم لم ير مثله منذ كان الاسلام ، خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب » .

ــ « تاريخ الامم الاسلامية »[3] لم يذكر مكان الموقعة أيضا ..

★ ويربط من يقول ان المعركة وقعت على سواحل آسية الصغرى قرب رودس ، بين فتح قبرص وبين ذات الصواري ؛ ويذكر : أن ذات الصواري وقعت على شواطىء تركيا الجنوبية حاليا ، بعد فتح قبرص مباشرة .

وهذا الكلام مرفوض قطعا .. فلا علاقة تاريخية بين فتح قبرص الذي كان على التوالي عام ٢٧ ، و٢٨ ، و٢٩ للهجرة .. بينما ذات الصواري كانت عام ٣١ هـ في رواية ، وفي رواية أخرى عام ٣٤ هـ .

---

(١) جـ : ٣ ، ص : ٥٨ . طبع البابي الحلبي « القاهرة » .
(٢) جـ ٧٠ ، ص : ١٥٧ ، طبعة مكتبة المعارف ببيروت (١٩٧٤) .
(٣) للشيخ الخضري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٩ .

اذن •• لا دليل لمن يقول ان المعركة حدثت على شواطىء آسية الصغرى الغربية الجنوبية •• ونحن نرجح أن المعركة كانت على شواطىء الاسكندرية وذلك للأسباب التالية :

١ ــ كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » يذكر صراحة : « غزوة ذات الصواري في البحر من ناحيـــة الاسكندرية »[١] •

٢ ــ تاريخ ابن خلدون يذكر[٢] : « ثم بعث ــ ابن أبي سرح ــ السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا وعاد الى مصر ، ولما أصاب ابن أبي سرح افريقية ما أصاب ، ورجع الى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازيا الى الاسكندرية في ستمائة مركب » •

٣ ــ ربطت المراجع العربية التي لم تحدد موقع المعركة ، بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم في شمال أفريقية بالذات •

٤ ــ الاسطول الرومي صاحب ماض عريق ، فهو سـيد المتوسط قبل ذات الصواري ، فهو أجرأ على مهاجمة السواحل العربية الاسلامية • علما •• أن اغــارة الاسطول الرومي على سواحلنا لمحت له وذكرته صراحة مراجعنا العربية • لذلك نرجح مجيء الاسطول الرومي الى شواطىء الاسكندرية لاستعادتها بسبب مكانتها عند الروم ومكاتبة أهلها لملكهم السابق • وهو بذلك

(١) ج : ١ ، ص : ٨٠ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط : ١ ، عام ١٣٤٨ هـ ــ ١٩٢٩ م •

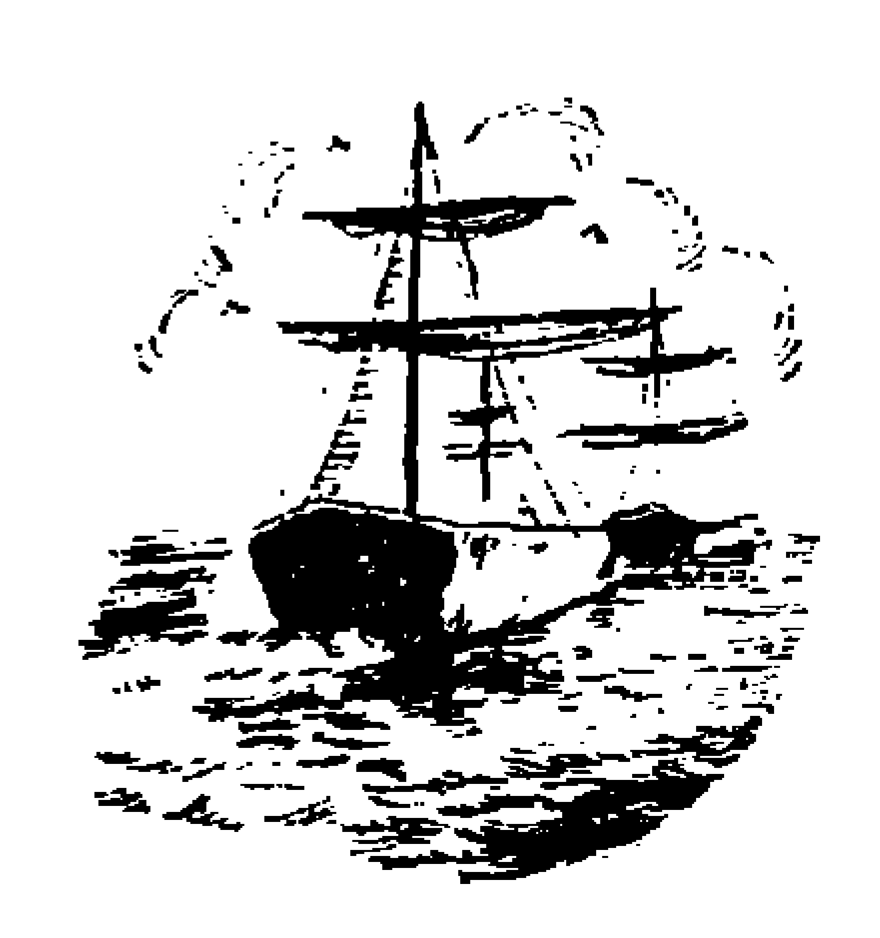
(٢) في المجلد الثاني ، الجزء الاول ، صفحة : ١٣٠ •

يقضي أيضا على الاسطول الفتي في مهده ، الذي شرع العرب في بنائه بمصر • فتبقى للروم السطوة والسيطرة في مياه المتوسط وجزره •

٥ ـ من يذكر أن ذات الصواري قرب آسية الصغرى ، يربط ذلك بفتح قبرص ، فهو بذلك يخلط بين حادثتين بينهما على الاقل ثلاث سنوات •

٦ ـ المراجع الاجنبية تعرف ذات الصواري بموقعة « فونيكة » ، وفونيكة هو ثغر يقع غرب مدينة الاسكندرية ، بالقرب من مدينة مرسي مطروح فهي تحدد الموقع تماما[1] •

★ هذا ما وفّقنا اليه •• وهذا هو مبلغ علمنا عن موقع ذات الصواري ، فان أصبت فالحمد لله هو الملهم وان أخطأت بما استنتجت ، فلي أجر الاجتهاد إن شاء الله •



---

(١) كما ورد في « الابحاث العربية في علوم البحرية » ، صحيفة القوات المسلحة ، العدد الصادر ١٩٧٣/٥/٢٨ ، ص ٣ •

أحداث المعركة

* المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح على ٢٠٠ سفينة .
* الروم بقيادة قسطنطين بن هرقل على ١٠٠٠ سفينة .

★ قال مالك بن أوس بن الحدثان[١] : « كنت معهم ــ في ذات الصواري ــ فالتقينا في البحر ، فنظرنا الى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا ــ أي لصالح مراكب الروم ــ فأرسينا ساعة ، وأرسوا قريبا منا . وسكنت الريح عنا ، فقلنا ــ للروم ــ : الامن بيننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ، ولنا منكم »[٢] .

كما طلب المسلمون من الروم : ان أحببتم ننزل الى الساحل فنقتتل ، حتى يكتب لأحدنا النصر ، وان شئتم فالبحر .

قال مالك بن أوس : فنخروا نخرة واحدة ، وقالوا : بل الماء ... الماء ... الماء . وهذا يظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية ، وأملهم في النصر لممارستهم أحواله وفنونه .. مرنوا

---

(١) مالك بن اوس بن الحدثان بن عوف اليربوعي (ابو سعيد) ، تابعي من اهل المدينة ، تاخر اسلامه ، وكان عريف قومه في زمن عمر ، يقال انه راى النبي ﷺ ، ولم تثبت له عنه رواية . « الاعلام ، ج : ٦ ، ص : ١٢٩ » .

(٢) الطبري ، ج : ٤ ، ص : ٢٩٠ .

عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه ، فطمعوا بالنصر فيه ، خصوصا وأنهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به •

★ بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر ، وموقف المسلمين حرج ، فقال القائد المسلم لصحبه : « أشيروا علي »؟!؟

فقالوا : انتظر الليلة بنا ، لنرتب أمرنا ، ونختبر عدونا ، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله عز وجل ويذكرونه ، ويتهجدون ، فكان لهم دوي كدوي النحل ، على نغمات تلاطم الامواج بالمراكب ، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم•

لقد بات كل منهما يهيىء نفسه روحيا ، فجميع الشعوب قديما وحديثا تركز على الاعداد الروحي قبل المعركة ، وأفضلها أثرا في النفوس ، سيكون لأصحابها النصر ••

★ أصبح القوم ، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال ، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، لما فرغ من صلاته ، اماما بالمسلمين للصبح ، استشار رجال الرأي والمشورة عنده ، فاتفق معهم على خطة رائعة :

ـ يمكننا أن نجعل المعركة برية على الرغم من أننا في عرض البحر ، فكيف تم للمسلمين ذلك ؟

أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن عدوهم ، فنزل الفدائيون ، أو « رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي » الى الماء ، وربطوا السفن العربية بسفن الروم ، ربطوها بحبال متينة ، فصار ١٢٠٠ سفينة في

عرض البحر ، كل عشرة أو عشرون منها ، متصلة مع بعضها ، فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة .

وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن يعظهم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم ، خصوصا سورة الانفال ، لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر ..

« **وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين** »(١) ... ان معاني هذه السورة الكريمة ، لهي من المعاني المناسبة للموقف المناسب .

★ بدأ الروم القتال ، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا : بل الماء .. الماء .. الماء ... وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الامل بالنصر ، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الاسطول الاسلامي ، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم ، وصار القتال كيفما اتفق وكان قاسيا على الطرفين ، وسالت الدماء غزيرة ، فاصطبغت بها صفحة الماء ، فصار احمر . وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه ، وضربت الامواج السفن حتى ألجأتها الى الساحل ، وقتل من المسلمين الكثير ، وقتل من الروم ما لا يحصى. حتى وصف المؤرخ البيزنطي « ثيوفانس » هذه المعركة بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم ، ووصفها « الطبري » بقوله : ان الدم كان غالبا على الماء في هذه المعركة .

---

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٤٦ .

حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله ، كي يبقى جند العرب المسلمين دون قائد ، فتقدمت من سفينته سفينة رومية ، ألقت الى سفينة عبد الله السلاسل لتسحبها ، وتنفرد بها ، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد ، بأن ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه[1] .

وصمد المسلمون رغم كـل شيء ، وصبروا كعادتهم في معاركهم ، فكتب الله عز وجل لهم النصر بما صبروا ، واندحر ما تبقى من الاسطول الرومي وكاد الامبراطور قسطنطين أن يقع أسيرا في أيدي المسلمين ، كما ذكر ابن عبد الحكم ، لكنه تمكن من الفرار لما رأى قواه تنهار ، وجثث جنده على سطح الماء تلقي بها الامواج الى الساحل .

لقد رأى أسطوله الذي تأمل منه خيرا ونصرا واعادة كرامة، يغرق قطعة بعد أخرى ، ففر مدبرا والجراحات في جسمه ، والحسرة تأكل فؤاده ، يجر خيبة وفشلا .. فوصل جزيرة صقلية[2] .. ألقت به الريح هناك .. فسأله أهلها عن أمره ، فأخبرهم فقالوا : « **شمت النصرانية ، وأفنيت رجالها ، لو دخل العرب لم نجد من يردهم** »[3] فقتلوه ، وخلوا من كان معه في المركب ..

---

(١) « فتوح مصر وأخبارها » ص : ١٩٠ .

(٢) ـ كون الرياح ألقت به الى جزيرة صقلية يرجح أن المعركة كانت غرب الاسكندرية ، فلو كانت المعركة على شواطئ آسية الصغرى ، لألقت به الريح على شواطئ اليونان أو كريت ، أو أية جزيرة من جزر بحر ايجه المتناثرة بعدد كبير هنـــاك !!

(٣) « فتوح مصر ... » ص : ١٩١ . وراجع ابن خلدون ، المجلد الثاني ، الجزء الاول ، صفحة : ١٣٠ .

نتائج ذات الصواري

*** سنوات قليلة.. والبحر المتوسط بحيرة عربية اسلامية .**

١ ــ كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون ، أظهر فيها الاسطول الفتي الصبر والايمان ، والجلد والفكر السليم ، بما تفتق عنه الذهن الاسلامي . خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم ، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشرع سفن الاعداء ، الامر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم .

٢ ــ كانت ذات الصواري حدا فاصلا في سياسة الروم ازاء العرب المسلمين ، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم ، أو استرجاع مصر أو الشام . وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر ، الذي كان بحيرة رومية ، وانتهى اسم « بحر الروم » الى الابد واستطاع العرب المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر الباليار ، ووصلوا الى جنوة ومرسيليا.

٣ ــ قتل قسطنطين ، فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده ،

وكان حدثا صغير السن ، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية اسلامية تستهدف عاصمة الروم « القسطنطينية » ، وهذا ما تم بالفعل عام ٦٦٩ للميلاد .

٤ ــ كان في جند المسلمين بعض الذين غررت بهم أفكار وسموم عبد الله بن سبأ اليهودي ، ومع كونهم ــ اثنين فقط ــ شكلوا « طابورا خامسا » تنبه له المسلمون ، خصوصا عندما حاولوا بذر سمومهم فقالوا : كيف يولي عثمان عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وفي الجند من هو أفضل منه ؟ و .. و .. فعثمان غير محق بذلك ، فقال عبد الله بن سعد : لا يركبوا معنا ، وبالفعل ركبوا بسفينة وحدهم . ولما لقوا الاعداء كانوا أقل المسلمين نكاية وقتالا .

وهناك كلمة :

إن عثمان في تولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح محق ولا شائبة على عمله هذا . صحيح أن عبد الله قد ارتد قبل الفتح، ولكن كتب التاريخ تذكر أنه « أسلم يوم الفتح فحسن اسلامه ، ولم يظهر منه بعد ذلك ما يُنكر عليه ، وهو أحد العقلاء الكرماء من قريش »[1] .

ثم انه لم يولّ بعد اسلامه بيوم أو بعام أو بعامين . انه أسلم عام ٨ هـ ، فخبر الجميع ندمه ، وحسن اسلامه وصلاحه ، فتولى أمر مصر عام ٢٥ هـ أي بعد خبرة وتجربة ١٧ عاما .

---

(١) راجع « أسد الغابة » ج ٣ ، ص ٢٦٠ . (الكامل) ، ج ٣ ، ص : ٤٥/٤٦ .

أما مقومات القيادة فيه : فهو فارس بني عامر بن لؤي وكان على ميمنة عمرو بن العاص لما فتح مصر ، وفي حروبه كلها • ودليل توبته الصادقة ، وندمه وأسفه ، ودليل صلاحه : دعاؤه في آخر حياته : « اللهم اجعل خاتمة عملي الصلاة » فصلى الصبح ثم توفي[1] ••

وهو لا يطمع بخلافة ، ولا يرى لنفسه حقا بها لما شاب حياته يوما •• وتحققت فراسة عثمان به ، لقد أحرز نصرا ، وقاد الجند بحكمة •

ولا يعيب على عثمان توليته قريبا له ما دامت أهلية القيادة متوفرة فيه ، فلا تمنع القرابة حق القيادة لمن هو أهل لها •• خصوصا ان أثبتت الاحداث أهليته لها •

٥ ــ الاعداد الروحي قبل المعركة ، أو ما يسمى التوجيه المعنوي في أيامنا هذه ، له قيمته في تحقيق النصر ، حيث تتجه الروح الى الله بصدق ، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجد وذكر ، يستمد العون من الله ، من عظمته وعزته •• بعد أن هيأ الاسباب•• يلقى الاعداء بروح عالية لا يهاب الموت ، فالله أكبر من كل شيء •

★ هذه المعارك التي نصف أحداثها التاريخية ، هي وصفة طبية نعرضها للتطبيق والنهج فاذا قلنا في الاجداد بطولة ، وأمجاد وعظمة ، وعلم وتخطيط وايمان ومحبة ، وتحرير وانسانية ••

---

(١) « أسد الغابة » ، جـ ٣ ، ص : ٢٦٠ •

واكتفينا بالوصف ، فكأننا نقول : هذه شمعة جميلة حلوة ، غالية الثمن ، مفيدة ، تشع نورا عند ايقادها .. ولكن سمعنا الوصف ولم نوقدها لنستمتع بانارتها ، لنستفيد من ضيائها ، خصوصا والظلام محيط بنا .. وحياة الصحابة ، ما هي الا للقدوة ، وسيرة للاتباع .. والا فما فائدة العرض التاريخي هذا ؟!؟.

★ الصحابة حققوا بتربية رسول الله ﷺ ما حققوا ، وما أحوجنا اليوم إلى تلك الروح التي بثها الرسول الكريم !

المربي الاول ، المنفذ الاول ، أحيا الايمان في القلوب ، وأيقظ الهمم في النفوس ، وبث الارادة وغرس العلم والفكر في الرؤوس .. فالإنسان هو الانسان .. الانسان فيه امكانات عظيمة .. ولكن يحتاج الى من يظهرها ويصقلها ..

الفرد اليوم مثله كمثل الصحابة بالامس ، قبل الاسلام لا قيمة له ، وبعد الاسلام كل صحابي صار أمة . وما ذلك الا بسبب الاسلام وتعاليمه ، ولتزكية رسول الله للنفوس .

والاسلام الذي نريده وندعو اليه اليوم ، هو الاسلام المصفى من كل بدعة وتحريف وتشويه ، نريد الاسلام على حقيقته ، دين العقل والعلم والحيوية والمعرفة ، مع نبذ التواكل والانقسام والدعة والحسد والضغائن والحقد .. لنحقق الفرد الكامل : روحا وفكرا وعلما ..

ولتحقيق هذه المعاني نحن بحاجة الى مرب مرشد مجدد ..

شيخ حكيم خبير بزمانه .. ولا أعني بالشيخ ما هو متعارف عليه في عرف الناس اليوم ، ذلك الانسان الفقير البسيط الذي ينتظر صدقة . لا .. ولا أعني به ذلك الذي يصوم كثيرا ، ويصلي كثيرا ، ويحج كثيرا .. لا ..

عمر بن الخطاب كان شيخا في زمانه ، كان خطيب منبر ، وامام الناس في صلاتهم .. وهذا جانب . أما الجانب الثاني وهو الذي شغل وقته الاكبر فيه : تسييره للجيوش ، وضعه الخطط لمعاركها ، تحريره للشعوب ، رعايته للأمة ، كان بكّاء من خشية الله ، وقهر كسرى وقيصر ، بعث الامة ، ونظم أموالها وجندها وأعطياتها للرعية ، أسعد أمته .

فالشيخ باعث أمة من رقادها ، ومصدر السعادة والروح والاخلاق والكرامة والاخاء والمحبة ، هو مشجع العلم والمعرفة والصناعة والبحث العلمي .

الشيخ الحق : مصنع للحكمة والبناء الحقيقي للشخصية ..

ومن يفتش عنه .. من ثماره يعرفه !!



لَاتَـنسَ

حِصْنُ بَابـْليون

١ ـ كانت مصر قبل الفتح الاسلامي لها ، تئن من استعمار الروم واستغلالهم لخيراتها ، ومن كثرة الضرائب المفروضة ، ومن الخلافات المذهبية الدينية .

٢ ـ استأذن عَمْرو بن العاص الفاروق عمر بن الخطاب سنة ١٨ هـ في السير الى مصر ، فأذن له ، فسار بأربعة آلاف مجاهد فقط ففتح « الفرما » في المحرم ١٩ هـ ، ثم أمده الفاروق بأربعة آلاف ، وبأربعة رجال هم : الزبير بن العوام ـ والمقداد بن عمرو ـ وعبادة بن الصامت ـ ومسلمة بن مخلد ، كل واحد منهم بألف رجل .

٣ ـ فتح باب حصن بابليون فارس رسول الله : الزبير بن العوام ، بعد أن وضع نصب عينيه : الموت أو النصر ، فتحققت فراسة الفاروق بالرجال .

٤ ـ أطلق العرب الحرية الدينية للقبط ، ولم يجبروا أحدا منهم على الاسلام .

٥ ـ شجع الفاتحون على الزراعة ، وأبقوا الارض في أيدي أصحابها ، واعتنوا بالري والترع والجسور ، فتحسنت أحوال القبط بشكل ملموس •

٦ ـ أعـاد المسلمون وصل البحرين الاحمر والمتوسط ، لتسهيل التجارة البحرية •

وهكذا •• أسعد الفتح سكان مصر •• وهذه هي غايـة الفتح الاسلامي •

ذاتُ الصَّوَاري

١ ـ بني الاسطول العربي الاسلامي بأيد عربية وطنية •

٢ ـ لم يأذن عمر للمسلمين بالغزو بالبحر ، شفقة عليهم ، وخشية على أرواحهم قبل استكمال بناء الاسطول •

٣ ـ سبب المعركة انكسارات الروم المتتالية في البـر ، فأرادوا تحطيم الاسطول الاسلامي الفتي في مهده •

٤ ـ هرب قسطنطين من المعركة ، تاركا جنده للاقدار ، هل هناك قائد عربي مسلم ترك المعركة ، ترك جنده ليفر ناجيـا بنفسه ؟

أين موقف قسطنطين هذا من موقف الامير الفارس النعمان ابن مقرن المزني ؟ أما تمنى أن يكون أول شهيد في المعركة ؟

أين هذا الموقف ؟ من مواقف خالد في اليرموك عندما كان يرى الموقف الحرج فيدفع نفسه اليه ليدرأ هذا الخطر عن جنده .

هذه الانهزامية التي أظهرها قسطنطين ما عرفها تاريخ الاسلام ، وقد عرفها التاريخ الاوربي الحديث من نابليون عندما ترك جنده للطاعون ، وللسفن الانكليزية تلعب بهم ، وهرب الى فرنسا بعد أن تحطمت آماله على أسوار عكا . هذه النفسية ما عرفها قادة الاسلام في فتوحاتهم بفضل التربية النضالية التي ربى عليها رسول الله ﷺ صحبه .

٥ ــ أصبح البحر المتوسط بحيرة عربية اسلامية ، وصار الاسطول الاسلامي سيد مياه البحر المتوسط ، وهذه السطوة ليست للتسلط والقرصنة بل للتحرير ليس غير ، فأينما حلوا حل العلم والخير والرفاهية والعدالة الانسانية . وستشهد بذلك الاندلس وصقلية وجنوب فرنسة ..

٦ ــ عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية ، وصناعة السفن ، وكيفية تسليحها ، وأسلوب القتال من فوقها ، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة ، فعرفوا الاصطرلاب « البوصلة الفلكية » ، وطوروها الى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال : كرستوفر كولومبس ، وأمريكو فيسبوشي في اكتشافاتهم .

* * *

المحتوى



للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)

٢ ـ مَنْ ضيَّع القرآن ؟

٣ ـ الإنسان بين العلم والدين

٤ ـ هارون الرشيد

٥ ـ غريزة .. أم تقدير إلهي ؟

٦ ـ آراء يهدمها الإسلام

٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية

٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي

٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »

١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان

☆ ☆ ☆

«المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

١ ـ القادسية	بقيادة سعد بن أبي وقاص
٢ ـ اليرموك	بقيادة خالد بن الوليد
٣ ـ نهاوند	بقيادة النعمان بن مقرّن المزني
٤ ـ ذات الصواري	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٥ ـ فتح الأندلس	بقيادة طارق بن زياد
٦ ـ بلاط الشهداء	بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٧ ـ فتح صقلية	بقيادة أسد بن الفرات
٨ ـ الزلاقة	بقيادة يوسف بن تاشفين
٩ ـ الأرك	بقيادة المنصور يعقوب الموحّدي
١٠ ـ العقاب	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحّدي
١١ ـ مصرع غرناطة	« أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

☆ ☆ ☆

غزوات الرسول الأعظم

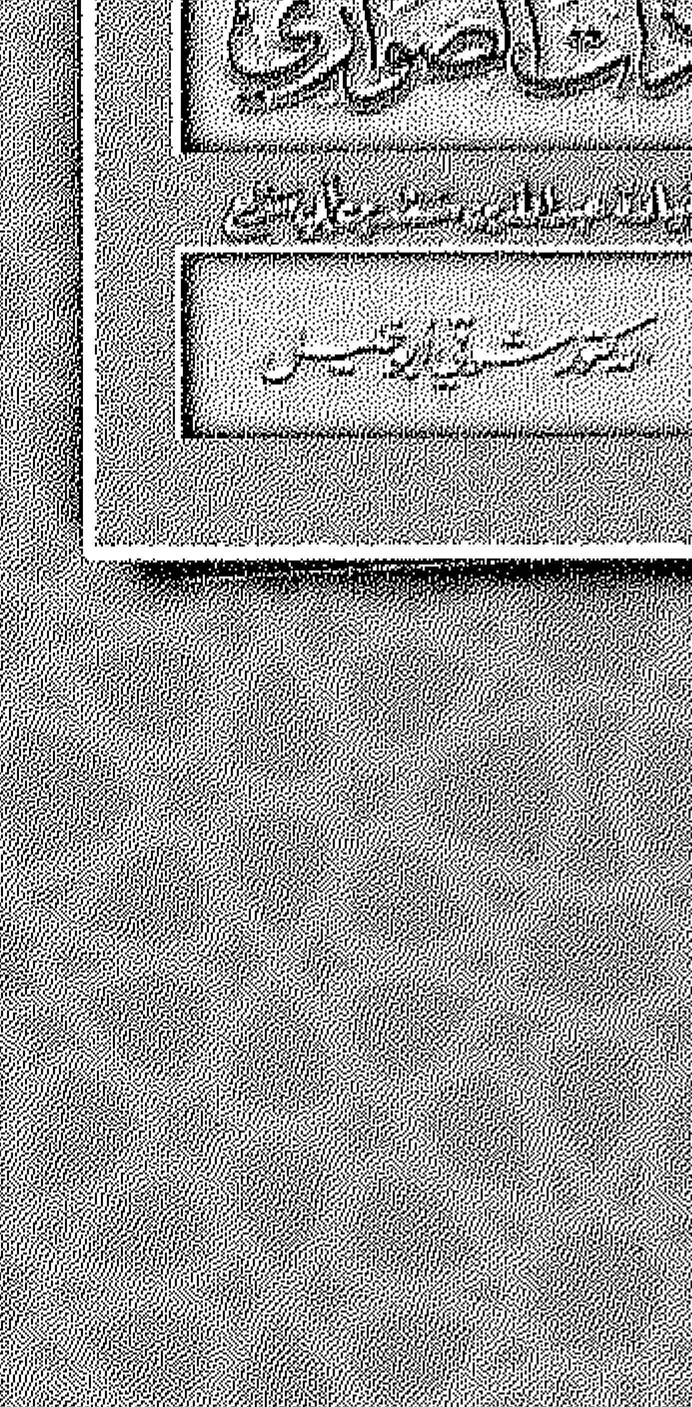
بَدر الكبرَى	:	رمضان ٢ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٤م
غزوَة أُحُد	:	شوال ٣هـ ـ كانون الثاني ٦٢٥م
غزوَة الخندق	:	شوّال ٥هـ ـ شباط ٦٢٧م
صلح الحديبيَة	:	ذي القعدة ٦هـ ـ شباط ٦٢٨م
غزوة خَيبَر	:	المحرّم ٧هـ ـ آب ٦٢٨م
غزوة مؤتة	:	جمادى الأولى ٨هـ ـ إيلول ٦٢٩م
فتح مكة	:	رمضان ٨هـ ـ كانون الثاني ٦٣٠م
حُنَين والطائف	:	شوّال ٨هـ ـ شباط ٦٣٠م
غزوة تَبُوك	:	رجب ٩هـ ـ تشرين الأول ٦٣٠م
«حُروبُ الرِّدّةِ»	:	«في خلافة الصّديق سنة ١١هـ»

THE GREATEST BATTLES IN THE HISTORY OF ISLAM

Dhāt al-Ṣawārī

Dr.Shawqī Abū Khalil





- الأرك .
- بلاط الشهداء .
- ذات الصواري .
- الزلاقة .
- العقاب .
- عمورية .
- فتح الأندلس .
- فتح الديبل .
- فتح سمرقند .
- فتح صقلية .
- القادسية .
- مصرع غرناطة .
- نهاوند .
- وادي المخازن .
- اليرموك .



DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/


ISBN 1-57547-503-0
9 781575 475035